الفصل الثالث

الخطأ القاتل

عاد المستر « كار » إلى لندن فى نهاية شهر يوليـو الأمر الذى كان يتنافى مع سياسة التقشف البريطـانى ، وكـان التغلب على مشكـلات ونقصـان الأسـاسيـات الخاصـة بتأسيس المسكن أمراً صعباً ، إلا أنه فى النهايـة استأجر بيتاً فى أحد الشوارع الخلفية فى « دى فيرى جاردنز » بمنطقة « لينسينجتون » .

وكـانت الحياة فى بـريطانيـا ذات مساوىء أخـرى ليس آخرهـا الغلاء الفـاحش وضعف الرواتب برغم التعويضات التى كانت تقدمها الحكومة .

وفى أعقاب الكـوارث الأولى المبكرة ، تمتـع جهاز الاستخبـارات السرية البريطـانية بفترة عمل جيـدة وإنجازات ملمـوسـة أثناء الحرب وذلـك بفضل التقنيات التى كـان يستخدمهـا وهكذا لم يعـد مستقبل الوكـالة الاستخبـارية مهـدداً بالفنـاء كما كان فى الماضى .

واستطاع « مينـزيس » أن يضمن لضبـاطه العفـو من مهانـة المرتبات الـوضيعة والمرتبة الـدنيا فى وظيفتهم كضبـاط مراقبة جـوازات سفر ، اللهم إلا إذا كـان ذلك أمراً متفقاً عليه للتمويه وكستار على عمليات استخبارية .

ولقـد تم تـحويل الهواة فى العمل الجاسـوسى إلى محترفين فى نظـر الجهـاز المدنى الاستخباري . وكان « مينزيس » محافظاً وأوشك على التقـاعد الأمر الذى لم يمكنه من إعـادة تنظيم جهـازه المخـابراتى إلا أنـه مع ذلك استطـاع إنشـاء قسم خـاص بجمع المعلومات الاستخبارية من شطرين هما : المهمات والإنتاج .

وكـان هناك تسعـة أقسام أخـرى كل منها مسئـولة عن مـوضـوع خصـوصى ـ السياسـة ، الاقتصاد ، العلوم ، والخدمـات العسكرية ـــ وهى التى كانت تقرر نـوعية المعلومات المطلوبة من الأقسام الجغرافية الخمسة المسئولة عن عمليات المخابرات حول العالم .

وعلى الرغم من أنـه كانت هناك الفرصـة لإنتاج الدماء الجديـدة وضخها فى أجهزة

المخابـرات البريطانية السرية ، إلا أن مينـزيس كان ينظر إلى زملائه القـدامى والموثوق فيهم على أنهم سوف يصبحون المتحكمين والمديرين لأقسام الإنتاج .

وكان الثواب الـذى ناله نظير خدمـاته فى هلسنكى ونجاحاتـه إبان زمن الحرب فى ستـوكهولم هـو وسام « ســى ـ إم ـــ جى » (رفيق ســانت ميشيل وسانت جـورج) والترقية إلى مرتبة المشرف والمتحكم فى منطقة الشمال التابعة للمخابرات البريطانية .

وشغل مكتبــه الطــابق الســادس فى « بـــرودواى » . وكــان يعكس هـــذا القسم المسئوليات التى تعلقها وزارة الخارجيـة البريطانية على منطقة الشمال والتى اشتملت على : النرويج والدانمارك ، والسويد وفنلندا والاتحاد السوفيتى .

وهكذا بـدأ تمكنه من هذا العمل الجديد إذ كـان قد أنفق خمسة وعشرين عـاماً من الخبرة العملية فى هـذه البلدان ، وكان طبيعياً أن لايـوجد منافس أو منازع لـه فى نطاق منصبه الجديد داخل المخابرات السرية البريطانية .

ووقعت تحت رعايته محطات المخابـرات البريطانية فى كل من العواصم الخمسة ، التى كانت مهمتهـا الأساسية ـ بعـد أن وضعت الحرب أوزارها ـ هى جمع المعلـومات مرة ثانية ، ولكن عن روسيا فى المقام الأول هذه المرة .

وكـــان من حقـــه الادعـــاء بأن عمله تقدم تقدماً جوهريـاً ، ولــدى عودتـــه من « ارشــانجيل » جعل يعلم نفسه الاختـزال والكتـابة على الآلـة الكاتبـة من أجل أن يصبح مـوظفـاً مكتبياً . وبعـد ذلك بخمســة وعشرين عـامـاً ، أصبح قناة هـامـة من الاستخبـارات لرئيـس الوزراء ووزارة الخارجيـة رغم عـدم تلقيـه تعليماً إضافيـاً أو حصوله على مـؤهلات مهنية ، وذلك من خـلال تقديمه للمعلومات الهامـة عن الشئون الداخلية لروسيا أكثر أعداء بريطانيا صرامة .

وبدا الأمـر وكأنه فـرصة طيبـة للمستر « كار » إذ أنـه صار من خـلال السلسلة الجديدة للقيادة ، كان يتعين عليـه أن يكتب التقارير أولاً بأول للمستر « كينث كوهين » مديـر الإنتاج الذى كانت اهتمامـاته السائدة هى فرنســا والبلاد الواطئة (هـولندا) ، وكان من عادته طلب تقارير غير محددة عن الأنشطة الدائرة فى منطقة الشمال .

كان من بين عمـلاء وزبائن المستر « كـار » هو « فيلبى » وقسمـه الجديد المسمى باسـم « ار ـ ٥ » للاستـــخبارات المضادة ، والتى حـــلت محل القسم التاسع . وكان « فيلبى » لايزال مسئـولاً عن الأشراف على جمع المعلومات على النطاق الدولى عـن كافة

الأشياء والأشخاص والسياسات (أى المادة) المعادية والمناهضة للسوفيت والشيوعية .

وظل « كار » مسئولاً عن تأمين سرية عملياته ، طالما أن « مينزيس » لم يكوّن جماعة الاستخبارات المضادة الموازية من أجل مراقبة أنشطة المخابرات البريطانية السرية الخاصة وعملائها .

تناقضت خبرات المستر « كار » على زمن الحرب فى الجو الهادى للسويد المحايدة تناقصاً حاداً مع ذلك الجو الذى عمل فيه رفقاؤه الذى كان عبارة عن جو حرب ونيران فى بريطانيا ، وجزر البلقان ، وشمال أفريقيا وفرنسا وألمانيا .

وعلى مدار عمله المهنى ، وحتى ترقيته فى ١٩٤٥ ، انعزل المستر « كار » عن الضغوط الداخلية الممارسة فى « برودواى » ، وأصبح مدركاً إدراكاً غير كامل بطبيعة الكوارث التى وقعت على أجهزة المخابرات البريطانية أثناء الحرب . ولم يكن يعرف إلا القليل مما تكبدته أجهزة الاستخبارات البريطانية وأقسامها الداخلية المختلفة .

وكانت التجاوزات والأخطاء المنكرة التى وقعت فى سكندنافيا قد أكدت فى رأيه تلك السمعة السيئة التى لحقت بمنظمة « إس ـ أو ـ إى » التابعة للمخابرات البريطانية ، وكيف أنها لاتحظى بالاحترام ، وبخاصة عملياتها فى هولندا .

وفى الفترة بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٤ ، أثناء تدفق الرسائل اللاسلكية بالراديو عبر القنال الانجلزى ، كانت ترسل تلك المعلومات إحدى شبكات المقاومة ، وتم إبرار ١٤٠ عميلاً تابعاً لقسم « إس ــ أو ـ إى » بالبراشوط لمقاتلة القوات السرية الهولندية . وفى الواقع كان « إس ـ أو ـ إى » ضحية للـ « نوردبول » وهى عملية خداع ضخمة صعدها الـ « ابويهر » .

وكانت المفاجأة أن جميع عملاء منظمة « إس ــ أو ـ إى » التابعين للمخابرات البريطانية استقبلهم لدى نزولهم « الجستابو » الألمانى أو البوليس السرى للرايخ الثالث النازى ، وبعد أن ورد إلى لندن رسائل تقول بوصولهم سالمين ، سمعوا بعد ذلك أن جميعهم قد أعدموا .

وفى عام ١٩٢٥ ، كان « كار » قد جرب كخبرة أخبث نماذج الخداع تلك التى مارسها الـ « ترست » وكان ليس بحاجة إلى التحذيرات بشأن مهالك ضعف الأمن

واحتياجات التجزئة المطلقة لحماية العملاء الأفراد .

وكانت علاقة « كار » مع « مينزيس » علاقة حميمة ، ليست على المستوى الاجتماعى بل على المستوى المهنى . ذلك أن الظروف الاجتماعية التى تربى فيها كل منهما كانت مختلفة اختلافاً شديداً . ومع ذلك ، كان كلاهما يشترك فى بغضه واشمئزازه من الشيوعية والشكوك فى البلاشفة وعدم الثقة فى وجهة النظر الشعبية بأن روسيا الستالينية سوف تصبح حليفاً دائماً فى زمن السلم .

وجلب « مينزيس » أحد الشخصيات من الخارج وهو العميد طيار جيمسى « جاك ايستون » ، وكان قد حظى بالتقريظ والإشادة أثناء الحرب بصفته مساعداً لمدير سلاح الجو الملكى البريطانى لشئون المخابرات ، بسبب تقديمه التسهيلات لأجهزة المخابرات السرية البريطانية ومنظمة « إس ـ أو ـ إى » ، ولذلك فقد تم تعيينه نائباً للمستر « سى »

وعاد المستر « ايستون » الذى يتصف بالهدوء والحنكة والخبرة والممارسة إلا أنه لدى وصوله تعرض لموقف لايحسد عليه إذ تجنبه مجموعة من رجال المخابرات القدماء المحنكين ذوى الباع الطويل فى شئون روسيا ، واحتقروا وازدروا فكرة أن يتولى رئاستهم رجل بدون « تاريخ كبير » فى العمل الاستخبارى ، لايتصف بالحساسية لعالم الجاسوسية والعمل الجاسوسى والجواسيس والعملاء . وقالوا : كيف يمكن له أن يمارس ويزاول السلطة عليهم وهو يفتقد إلى هذه المؤهلات الضرورية ؟ .

وبعد قضائه أياما قليلة فى «برودواى» علق « ايستون » على مايلقاه فى «برودواى » لزوجته قائلاً : « إنه مناخ شديد الحساسية وسريع الغضب . وأثار حفيظة نقاده الاستئناف المتوقع للعمل ضد البلاشفة ، وكان من المتوقع أن يكتبوا بذلك إلى المستر « ايسون » ، وسرعان مايتقن النائب الجديد من أنهم يتحاشون ويتجنبون مكتبه المجاور لمكتب « مينزيس » فى الدور الرابع .

كانت دائرة روسيا القديمة تشمل « ويلفريد » بيفى » دنورديل » الذى أشرف باعتباره ضابطاً فى المخابرات البريطانية السرية فى باريس قبل الحرب ، على مجموعة كبرى من الروس البيض تعمل ضد السوفيت .

وفى عام ١٩٤٥ ، استأنف « دندرديل » صلاته مع « طاقم كبير » قوامه ثلاثون مهاجراً روسياً فى لندن لاعتراض الاتصالات السلكية واللاسلكية البريطانية . وقدم

obeikandi.com

« بيفى » الذى سكن فى منـزل منفصل ، قدم عمليته على أنها « عملية إذلال » للبلاشفة وأصر على المثـول المباشر بين يدى المستر « سى » ، وتحاشى « ايستـون » من حمايـة عمليته .

ولم يتحقق أحد فى ١٩٣٩ من أن مجمـوعة باريس تم اختراقها اختراقـاً كاملاً كما أنه ـ بنفس القـدر ـ لم يتم السماح لأحد بأن يعرف عـام ١٩٤٥ أن فريقه أصبح تحت أضراس السوفيت وأنهم فقدوا كل شىء . ولم يتسنَّ لهم معـرفة كل هذه الأسرار إلا فى أثناء الخمسينات .

كان « هـارولد جيبسون » رجـلاً آخر من أولئك الـذين يجيدون الحنكة والـدربة التعامل مع الأشياء واتصف بأنه داهية . ففى الفترة الواقعة قبيل انتهاء الحرب ، زعـم « جيبسـون » تحقيقه لنجاحـــات باهـرة فى براغ وبخارست . أما الآن فقد تحقق المستر « ايستون » كيف أن الضـابط المنتظر ساعـات طويلة خـارج مكتب « سى » للاجتماع معه ، ولم يناقش معه العمليات بصفته الرئيس المباشر له .

فكانت كلما اضطرت الظـروف المستر « جيبسـون » لشرح أنشطته إلى « ايستون » شـعر الرجل القادم حديثاً بعدم الـرضى ، ولم يكن هناك ثمة تفاهم بينهما ، فكان الأمر يشبه الماضغ للقطن على غير طائل .

وفى تلك الآونـة صارت القـوات الـروسية لأول مـرة فى التـاريخ متمركـزة فى قلب أوروبا وأصبحت جميع أجهـزة المخابرات الغربية تنشـد وتسعى إلى اختراق الضباب : ضباب الشكوك وعدم التيقن بشأن النوايا السوفيتية .

وبالنسبة إلى المخـابرات البريطانية والأمـريكية ، أصبح تقسيم ألمانيا إلى منطقتين يقدم ميزة وفرصة فريدة هى استطاعة مراقبة الجيش الأحمر والمخابرات السوفيتية الـ « كى ـ جى ـ بى » وهى تعمل . ذلك أنهم يستطيعـون بعيداً عن روسيا إخفاء أنفسهم عن الأعين ، أمـا فى داخل ألمانيا ، فتستطيع أجهـزة المخابـرات الغربيـة مراقبـة هيئات العاملين وتقنيَّاتهم وأهدافهم .

وأصبح لأول مرة ، لم تحتج أجهزة المخـابرات البريطانية السريـة أية رجال للعمل كما لم تعد تعانى من نقص الكوادر (كانت المخابـرات السرية للدولة البريطانية تسمى أصلاً « إم ــ أى ـ ١ » ثم أعيـد تسميتها « إم ـ أى ــ ٦ » عام ١٩٢٣ . أمـا الاسم الذى أطلق عليها قبل هذه الفترة من التاريخ فقد كان مجهولاً) .

obeikandl.com

وفي ذلك الموقع كانت المخابرات البريطانية تستطيع استغلال التوسع الضخم للعتاد والقوة العاملة فى زمن الحرب . وكان مجرد توقيع واحد كافياً لاكتساب أو مصادرة أى شىء مطلوب من الألمان .

إلا أن « مينزيس » حث على الحرص والحذر بين هيئات العاملين . وتوقع البعض أن تستمر الحكومة التى يتزعمها حزب العمال البريطانى فى علاقاتها الطيبة على زمن الحرب مع موسكو وإدانة أى ارتباك يسببه جهاز الاستخبارات البريطانية السرية . وفى نفس الوقت ، يتم الاتصال بالقوميات المناهضة للسوفيت كما كان الزج بالعملاء فى الدول والبلدان التابعة .

وقال « مينزيس » : إن هذا لم يستبعد إعادة تجديد المساندة للشعب الأكرانى وشعب جورجيا ، واتفق مدة على هذا الرأى المستر « كار » ، وكذلك أهالى دويلات البحر البلطى الذين بوسعهم التطوع بكل توق وشغف من أجل أى اشتباك من شأنه تحرير بلادهم .

وأوصى « كار » بإرسال مشغل لاسلكى من السويد إلى لاتفيا ، الذين كانوا بكل المقاييس لايزالون مشتبكين فى الحرب الضروس مع الروس . ووافق مينزيس ولكن للمرة الثانية حث على توخى الحذر والحرص . وهكذا فقد تقرر أن يتم إرسال وتوجيه جميع المساعدات والعون بكل حزم عبر الوسطاء .

كانت ثمة ضرورة توجب وجود صلة أو ارتباط مع رئيس « ار ــ ٥ » وحدث أن حكم « كيم فيلبى » على مشروع « كار » بأنه بمثابة إعادة تجديد للعداوات .

وعهد « كار » بالمسئولية عن إدارة والاشراف على العمليات الجديدة إلى « ساندى ماكيبين » الذى ألحق للعمل فى مركز الاتصالات الخاص فى شارع « رجدير » بالقرب من بيكاديللى ، وعلى الرغم من عدم وجود ألفة بين الرجلين ، إلا أن « كار » اعتقد بأن « ماكيبين » امتلك المؤهلات الملائمة .

إذ كان يتحدث عدة لغات ويتمتع بخبرة طويلة فى المنطقة ، كما كان يستمتع بالإخلاص والولاء والاحتمال فضلاً عن الثقة ، وهيأ نفسه للبقاء فى إطار الخدمة ، فى حين كان عدد كبير من الأشخاص الآخرين بصدد الرحيل ، سعيا وراء إغراءات الفرص المربحة فى المدينة .

وعلى صعيد دول البحر البلطى ، أرسل سفراء الدويلات الثلاث برسائل دورية إلى وزارة الخارجية الأمريكية ووزارة الخارجية البريطانية يحتجون بأن الحكومات الجديدة اعترفت بحق بلادهم فى البقاء .

وعلى الرغم من أنهم فى واشنطن كانوا يعاملون هؤلاء بكل محبة سواء على الصعيد الرسمى أو غير الرسمى . وأدانت وزارة الخارجية البريطانية اتصالاتهم ووصفتها بأنها « مناشدات محزنة ومثيرة للشفقة » .

وكتب « باسيل سميدلى » المسئول بالحكومة البريطانية بعد أن قرأ وصفاً للموقف البائس فى دول البحر البلطى من السفير اللاتفى « تشارلز زارينو » يقول : « ليس هناك بوسعنا فعله لمساعدتهم ، كما أنه ليس هناك أية مقولات يمكن استمدادها من التاريخ الخاص بـ لاتفيا » أو استونيا أو ليتوانيا من شأنها أن تؤثر على المستقبل .

وساد نفس الاتجاه بعد السماح للمستر « شارمان » السكرتير الأول بالسفارة البريطانية فى موسكو ، له فى أكتوبر ١٩٤٥ بالسفر إلى ريجا لأول مرة وتأكيد ادعاءات « زارينز » بالرعب والترحيلات الجماعية إلى سيبيريا .

وقال « شارمان » فى تقاريره أنه ليست هناك حركات مقاومة ضد السوفيت وربما قرأ « كار » و « ماكيبين » تقرير شارمان إلا أنهما رفضا ملاحظاته على نحو صائب واعتبراها وجهة نظر ضابط صغير الرتبة وعديم الخبرة كان يسافر تحت وطأة الإشراف المطبق والمحكم .

وفى ذلك الحين كان الـ « كى ـ جى ـ بى » يعانى من خسائر خطيرة فى عملائه الدموية لقمع الفلاحين .

وتحقق السفراء الثلاثة (سفراء دول البحر البلطى) من أن توازن القوى مال لصالح الأطلنطى وأن تحرير بلادهم يعتمد على واشنطن حيث أن كثيراً من شعوب بلاد أوروبا الشرقية تعيش فى أمريكا .

وفى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، لم يهاجر سوى أقل من ١٠٠,٠٠٠ روسى وأوروبى شرقى سنوياً إلى الولايات المتحدة ، وفى بعض السنوات ، وصل الإجمالى إلى حوالى ٣٠٠,٠٠٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاماً كانت الأغلبية لاتزال تعيش ونقلت إلى الجيل الجديد شعورها المتأجج بالوطنية والقومية وشكوكها فى الشيوعية .

وضغطت جماهير المهاجرين عبر الحرب العالمية الثانية على روزفيلت نيابة عن أبناء بلادهم ، وأرسلوا وابلاً من القنابل (فى شكل التماسات) إلى الكونجرس والبيت الأبيض يطالبون فيها بتنفيذ ميثاق الأطلنطى .

وفى فبراير ١٩٤٥ ، كتبت رابطة تحرير ليتوانيا إلى روزفيلت تشكو من أنه ليس هناك أى ذكر فى « بالطا » عن مسألة وقضية دويلات البحر البلطى .

وتدفقت المناشدات فى هيئة فيضان فى الأسابيع الواقعة قبل انعقاد مؤتمر « بوتسدام » تم تقديم معظمها شخصياً من جانب الوفود الآتية إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، وكلها تحمل صفة وعلامة اللوبى المنظم من أجل الضغط على الإدارة الأمريكية .

وكلها ذكرت المتناقضات الصارخة الواردة فى « يالطا » وميثاق الأطلنطى . وبكل تأكيد ، حث الملتمسون على تحقيق أمانى دول البحر البلطى وكيف أن لها نفس حقوق الاستقلال والحكم الذاتى شأنها فى ذلك شأن سائر الأمم .

وكان رد فعل المسئولين الحكومين هو التصرف بإنكار أنفسهم والابتعاد بأنفسهم عن هذه القضية ، إذ لم يشأ أحد أن يكشف تعهدات روزفيلت إلى ستالين حينما تخلى عن الاحتلال السوفيتى لكل من دول البحر البلطى وبولندا ، وقال للزعيم السوفيتى : « لا أنوى خوض الحرب من أجل هذه القضية » .

أما ضغطهم على خليفة روزفيلت فقد أثبت جدواه . ففى خطبة ٢٧ أكتوبر ١٩٤٥ فى نيويورك « سينترال بارك » أعادة ترومان تأكيداته على مساندته للدول المحتلة والتزامه بميثاق الأطلنطى . وهو أمر جعل الجماهير المستمعة له تشعر بالامتنان والرضا .

إذ أن أمريكا الدولة الوحيدة التى تمتلك القنبلة الذرية كانت من القوة الكافية بحيث انها تستطيع استخراج وأخذ التنازلات اللازمة من الاتحاد السوفيتى . وحتى إذا كان ترومان غير مستعد لكسر الصداقة مع ستالين ، وهو مادعمه روزفليت ، إلا أن زعماء دول البحر البلطى فى أمريكا اعتقدوا أن الحكومة البريطانية سوف تساعدهم وتعين قضيتهم بكل تأكيد ، حيث أنهم سمعوا من السفراء بصورة غير رسمية أن جهاز المخابرات السرية البريطانية لم يتخل عن اهتماماته ومصالحه التقليدية .

وأصدر « كــار » تعليماته إلى مــرؤوسيه بإقــامة تواجــد عبر بلدان وجمهــوريات الاتحاد السوفيتى . وكانت الاستخبــارات البريطانية تحتاج إلى الـزعماء المهاجرين من كل من المنــاطق التى تستطيع تقديم تنظيمات قــومية لها مصــداقية لجمع المعلــومات وتجنيد العملاء . وأمــر المستر « كار » ضباطه بــاستئناف وإقامة العــلاقات مع أولئك الذين هم أصدقــاء للمخابرات البريطانية قبل أو أثنــاء الحرب ، وعادة بغض النظر عن تعاونهم إبان الحرب مع ألمانيــا ، وكان من بين هؤلاء « ستيفان بانديرا » رجــل الزعامة القومية الأكرانية الذى عمل معه « كار » أثناء الثلاثينات فى فنلندا .

وفى عام ١٩٤٥ ، كان لاجئاً فى ألمانيا الغربية . ورجل اخر هو الجنرال « لاديسلاف انــدرز » زعيم الجيش البولنــدى المحلى ، الــذى دفعته المخــابرات البريطــانيــة لإقامــة العلاقات مع ضباطه فى بولندا التى يحتلها السوفيت . وكانت العمليات فى كل من هاتين المنطقتين بمثــابة المسئــولية الكــاملــة الواقعــة على « كار » أمــا إعــادة إقامــة علاقــات الاستخبارات البريطــانية مع رجال الجاسوسيــة فى دويلات البحر البلطى ، فقــد كانت مسئولية مباشرة للمستر « ماكيبين » .

وفى بواكر يولية ١٩٤٥ ، عاد «ماكيبين» إلى ستوكهولم لمقابلة «ولتر زيلينسكاس» ، وهو أحد الدبلوماسين السابقين . وكــان الرجل الليتوانى يكافح من أجل البقاء والبقاء . والآن فى أعقاب انتهاء الحرب مبــاشرة ، أعطت الحكومة السويديــة ـ التى كانت تخشى من تعنيفات وتوبيخــات موسكو ـ إخطــاراً بمهلة يومين إلى السفارة الليتــوانية لإغلاق مقر السفارة وأمراً آخر بنقل كافة ملفاتها إلى السفارة السوفيتية .

ولما انتهت المهلــة ، تعرضت الملفــات كلها إمــا إلى التدمير أو النقل فى أحــد الزوارق الصغرى إلى إحــدى الشقق الصغرى فى « أودينجــاردين » . على الرغم مــن أن عمليات المخابرات البريطانية فى زمن الحرب فى ليتوانيــا كانت ناجحة ، إلا أن « ماكيبين » تحدث بتفاؤل عن المستقبل ، وأخبر « زيلينسكــاس » بأنه سوف يعطى المعونــات المالية مهما كانت ضخــامتها والتى يحتاجهــا من أجل جمع المعلومات المخــابراتية لصــالح أجهزة المخابرات السرية البريطانية .

ثم عــاد آنــذاك « الجيرداس فوكيتيتــس » العميل المشترك بين المخابــرات السريــة البريطانية ومكتب الخدمــات الاستراتيجية (المخابرات الأمريكية) ، ليتم إرســاله مرة ثانية إلى ليتوانيــا عام ١٩٤٣ ، وبعدها عاد إلى السويد ، وقد نجــا بحياته من الحجز فى داخل معسكرات الاعتقال الألمانية .

وعقد اجتماع على عجل ، قال فيـه للمستر « ماكيبين » : إن زعماء الـ « فليك » وهى اللجنة العليـا لتحرير ليتوانيـا ، قد نجوا كـذلك من السجون الألمانية إذ كانـوا مفخرة الاستخبارات البريطـانية السرية لأنهم ، حسبما قـال « فليك » يمثلون كـولبة وتنظيماً ناضجاً سياسياً وعسكرياً ، وكان لهم صلاتهم مع آلاف المعادين والمناهضين المسلحين للشيوعية والذين كانوا يقاتلون فى الغابات .

فى نفس اللحظة بعينها ، كان ضباط المخابـرات الأمريكية أيضاً يبحثون عن زعماء « فليك » .

ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها ، إلا وقد أخـذ الليفتنانت « أنتونى فيفيدل » ، وهو أحد ضباط الاستخبارات الصغار الذى يعمل فى مقر الجيش الثالث التابع للجنرال « باتون » فى ميونخ ، أخذ يتدبر ويفكـر كيف يقوض من القبضة السوفيتية على أوروبا الشرقية ، وبخاصة ليتوانيا .

كان فيفيدا بلغ من العمر ٣٤ عامـاً ، ونشأه والداه (وهما من ليتوانيا) على بغض وكـراهية الـروس . وعلى الـرغم من أنه ولـد فى « فيـلادلفيا » .. على الســاحل الشرقى للولايـات المتحدة ، إلا أن فيفيدا وعـائلته شأنهم شأن الكثيرين الـذين وجدوا الحصن والملاذ فى أمريكا من الشمولية والديكتاتورية الروسية لم يتخلوا أبداً عن جذورهم .

وفى عام ١٩٢٠ ، عادوا إلى ليتوانيا وقد أثارهم استقلال دولتهم ، وماكادوا يطأون أرضهـا إلا وقد أضر بهم الفقـر والعوز والأوهـام . وبعـد ذلك بسنوات ست ، عـاودوا هجرتهم إلى أمـريكا ليـوقدوا من جـديد مع مليـون آخرين مـن المهاجريـن الليتوانيين شموع التحررية الوحدوية لبلادهم من على البعد .

وفى داخل مقر المستر « باتون » بميونخ ، كان ثمة حديث طويل وكثير حول تهديد الشيوعية ـ وأخذهم العجب والتناقض كيف يكونون أعداء على هذا القدر من الحضارة ومع ذلك هم حلفاء للـولايات المتحدة الأمـريكية منذ أربعـة أعوام كاملـة . وكان بعض ضبـاط وأتباع فيفيـدا أكثـر قلقاً وانـزعـاجاً من الجيش الأحمر والشيـوعيين ، وليس النازيين والرايخ الثـالث الألمانى ، الذين كانت خنادقهم وقوتهم ونفـوذهم لاتزال واثقة حول بافاريا .

وقد يقـول الكثيرون : إن الظلم الواقع عليهم نبع عـام ١٩٤٥ حينما واجه الجيش الثالث الأحمر فى تشيكـوسلوفاكيـا على ضفاف نهر « إيلبى » إذ اتصفت المواجهـة هذه

المرة بأنها كثيفة وعدوانية ، أغرت الضباط الأمريكين بأن يغمضوا أعينهم حينما ساعد أتباعهم وحدات « فيرماخت » المحتجزة والضباط الآبقين التابعين لمجموعة « إس إس » على الهرب إلى ناحية الغرب .

ولقد تمخضت مآسى الحرب والعداوات بين الشعوب الأوروبية وتطاحن جيوشها إلى إلحاق الخراب بالبلدان والمدن والمصانع والمزارع وتشريد السكان وترويع الآمنين ونشر الخراب والدمار ، وضياع الأمن وافتقاد السكينة فضلاً عن تشرد العمال ، وهيامهم على وجوههم فى البلاد طلباً للرزق والعمل وسعياً وراء حياة جديدة والبقاء وهربا من الموت المحدق بهم من كل صوب وناحية .

وكان معظم الأغلبية من هؤلاء ضحايا بلاشك . وكان هناك ضحايا لجماعة « إس إس » هم الذين تم اختطافهم من منازلهم فى أوروبا الشرقية للعمل فى ألمانيا ومصانعها العامرة والمناجم الساحرة أو من أجل السجن فحسب فى واحد من الكثير من السجون الألمانية ومعسكرات الاعتقال (التركيز) المنتشرة فى أرجاء وربوع بلاد الرايخ الثالث .

وعلى الرغم من أن المجموعة الضخمة كانوا من البولنديين ، إلا أن « فيفيدا » لاحظ أن الكثير من الضحايا الآخرين كانوا ينتمون إلى الشعوب الأكرانية والقوازقة والأذربيجانيين ، والبيلوروسيين (أهالى روسيا البيضاء) أو الأرمن الذين كانت أوطانهم تنتمى إلى روسيا حسب اتفاقيات « يالطا » .

وكان البعض الآخر ضحايا للنازية وبعضهم حارب الألمان ضد السوفيت ، والآخرون كانوا بمثابة لاجئين هجروا أوطانهم وبلادهم فى اتجاه الغرب خوفاً من الشيوعية ، وكان من بين هؤلاء الفئة الأخيرة قوميات ورعايا ينتمون بجنسياتهم إلى جمهوريات البحر البلطى الثلاث : لاتفيا ، وليتوانيا ، واستونيا .

وفى الأيام المبكرة من شهر مايو ، شرع فيفيدا فى القيادة بالسيارة مئات الأميال حول بافاريا باحثاً عن اللاجئين الليتوانيين والتحدث معهم بلغاتهم الأصلية . لقد أخبروه بالأهوال والفظائع التى ارتكبها الروس ، وكيف أنهم بسبب خشيتهم من الشيوعية تخلوا عن كل شىء وخشية أن يقوم الأمريكان بنقلهم قسراً والعودة بهم للعيش تحت إمرة وسيطرة السوفيت كما فعلوا مع الكثير من الأوروبيين الشرقيين .

والأسوأ من ذلك كله ، اعتقادهم بأن الجيش الأحمر سرعان ما يزحف صوب الغرب لاحتلال المزيد من البلاد والبقاع الأوروبية . ولقد أوقدت حكاياتهم نيران

الكـراهية والمقت ضـد السوفيت . فصـار « فيفيدا » يحترق حقـداً وبغضاً لهم والـذى أزعجه أن كثيراً من رفاقه الضباط الأمريكان كـانوا يخاطبون الليتوانين كما لو كانوا ـ مثل اللاجئين الروس ـ قد تعاونوا مع النازيين .

وشرع « فيفيدا » بناءً على مبادرة منـه فى البحث عن زعماء « فليك » الذين لايزالون على قيد الحيـاة . وراح يعبر شوارع ومناطق بافـاريا بسيارته العسكـرية « الجيب » . واقتنع أن بحثه هذا يمثل إضـافة إنسانية إلى القضيـة الليتوانية ، وإضافـة إلى المعرفة والمعلومات الأمريكية حول الموقف فى روسيا .

ولقى طلبه المكافأة والثواب . إذ وجد بعـض زعماء الـ « فليك » وعثر عليهم وكانوا لايـزالـون محتجـزين فى سجن « كـوبـورج » ، فأصـدر أوامـره بإطـلاق سراحهم ، والآخرون الذين فروا مع الألمان فى أواخر عام ١٩٤٤ ، استقروا فى معسكرات المتشردين والأشخاص الذين تدمرت بيوتهم .

كـان جميع هؤلاء من السـاسـة السابقين وضبـاط الجيش وأسـاتذة الجامعـات والأكاديميين أو رجـال الدين . وتشـابهت رواياتهم حول المعـاناة التى تكبـدوها تحت سطـوة النازيين وكيف أنهم هـربوا المعلـومات حـول ظروف وأحـوال زمن الحرب إلى أجهزة المخابرات البريطانية فى استوكهولم . وشعر « فيفيدا » انه قد وصل إلى مبتغاه .

إلا أنه وقبل أى شىء آخـر قد تأثر أشد التأثير بخوفهم مـن الروس واشمئزازهم منهم . وتوجهوا بناء على توجيهاتـه إلى « ورزبيرج » لخلق وإنشاء خزان من المعلومات الجديدة حول الاتحاد السوفيتى ومركز يتم فيه وصول اللاجئين من ليتوانيا حيث يتم استقاء المعلومات منهم واستجوابهم بشأن أغراض الاستخبارات .

على الرغم من أنهم كانوا بمثابـة ائتلاف محير من الاراء المنفصلة والمتفاوتة جداً ، إلا أن الـذى كان يجمعهم هـو قناعتهم بـأن الحرب العالميـة الثالثـة صـارت وشيكـة النشوب . وأخبر المونسينيـور « ميكولاس كـروبافيس » رجل الـدين القوى الـذى كان زعيم الـ « فليك » ، أخبر المستر « فيفيـدا » بأنه ليس راضياً عن استعادة الامبراطـورية القديمة إلا أنه فى يوم من الأيام سوف يتحرك صوب الغرب .

وعلى الرغم مـن أن أكواما من الجثث كـانت لاتزال راكـدة بدون دفنهـا عبر القارة الأوروبية ، إلا أن تنبـؤات « كروبـافيس » لم تكن غير شائعـة أو غير متفقة مع رفـاقه وضحـايا الحروب الأوروبية .

وفى الأيام الأولى من يونية عام ١٩٤٥ ، كتب « فيفيدا » مذكرة من ثلاث ورقات على الآلة الكاتبة مخاطباً فيها رئيسه وأسماه « تقرير حول الحكومة السرية فى ليتوانيا » . واستخدم فيه لغة مؤثرة ، وأوضح محنة ومأساة الـ « فليك » الذين لايرغبون سوى فى إعطائهم الفرصة لتقديم قضيتهم إلى الممثلين المعتمدين الأمريكان نيابة عن ٣٠٠,٠٠٠ ليتوانى مطرودين من أوطانهم السليبة .

وفى تعليق اضافى ، قال « فيفيدا » : إن جميعهم يعربون عن سخطهم بكل عنف ويبدون أسوأ المشاعر المناهضة والمعادية للسوفيت ، ويوضحون أنهم هم والليتوانين عموماً لن يعودوا إلى ليتوانيا . ذلك أن هذه العودة تعنى للبعض « الموت المحقق ، وتعنى للآخرين النفى مدى الحياة إلى سيبيريا » .

وأبدوا مشاعرهم المريرة بأن « الأمريكان وسلطات جوازات السفر » اتهمتهم بالموالاة والتأييد للنازية نظير اتجاهاتهم وتوجهاتهم المعادية لروسيا . وظهر الخوف من النظام السوفيتى ليصبح دافعاً مسيطراً فى تفكير المجموعة الكاملة كلها .

وحذف « فيفيدا» عمداً التنبؤات الوخيمة التى قال بها « كروبافيس » عن نشوب الحرب الثالثة برغم قناعاته الكاملة بنوايا السوفيت التى لم تكن تهدف إلى مواصلة الحروب .

وفى مقر قيادة الجنرال « باتون » ، تم قراءة التقرير الثانى لليفتنانت كما تم تسجيله . وبحلول شهر يوليو ، شق التقرير طريقه إلى أعلى عبر القنوات العسكرية إلى « روبرت ميرفى » المستشار السياسى للجنرال « لوسيوس كلاى » ، قائد الحكومة العسكرية فى المنطقة الأمريكية .

وتعاطف القليل من الضباط فى مقر قيادة « كلاى » مع مخاوف وشكوك روسيا التى فرضها عليهم الألمان واللاجئون على نحو متواصل غير منقطع وعبروا عن مساندة الجنرال جورج مارشال وتأييده لكلمات أيزنهاور التى قال فيها : « إننى أمقت المخاطرة بحياة الأمريكين من أجل الأغراض السياسية البحتة » .

ولقد كان السوفيت لايزالون حلفاء للولايات المتحدة الأمريكية . ولهذا السبب ، لم يتم النظر بدراسة تقرير « فيفيدا » الذى كان يستحق متابعته وجديراً ببحثه ، على الرغم من أن الذى قدمه هو المستر « ميرفى » إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطن ، حيث وصل فى شهر سبتمبر ، أى بعد شهر كامل من توقيع القوى الكبرى الأربع

لاتفاقيـة « بوتسدام » التى حلوا فيهـا حكومة ألمانيـا وتعزيز ثبات الحدود القـومية فى أوروبا .

وفى ذلك الحين ، كان « فيفيدا » يبحر بالفعـل من أوروبا للعودة إلى الحياة المدنية ، وكان عمله بمثابة حل للألغاز . إذ أن الانقسامات بين الشعوب الليتوانية فى المنفى كانت أكثر عمقاً عما كان يتفهمه . وقال المونسينيور « كروبافيس » القسيس العدوانى ، قال : بأن الــ « فليك » يتعين عليها إقـامة حكـومـة فى المنفى ذات مجلس عسكرى لـزعامـة الفلاحين .

وأصر « ستاسيس لـوزوزيتس » الدبلوماسى الليتـوانى الكبير فى الغرب أصر على أن يمثل بنفسه شخصياً الحكومة القومية وأنه لن يتسامح أبداً مع تجريده من سلطاته وانتزاعها منه .

وفى خضم هذا العداء المرير والمستحكم والذى لاطائل من ورائه ، وصل الجنــرال « ريمونـد شميتلين » من المكتب الثانــى الفرنسى إلى « فيرزبـورج » فى شهر سبتمبر . اتخذ « شميتلين » مقـراً لـه وقـاعـدة فى ليتـوانيــا قبل انـدلاع الحرب وعـرف جميع الشخصيـات المحتشـدة فى فيرزبـورج . وتم دعـوة الـــ « فليك » لنقل مقـارهـا إلى « تـوبينجين » فى المنطقة الفـرنسية حيث يتم تمويلهـا وتدريبهـا من أجل تعزيـز جيش المقاومة للعمليات فى المستقبل القريب جداً .

وتم قبول عرضـه فوراً إلا أن بعض المنشقين كانوا يجادلـون بأن الفلاحين الذين يقـاتلون فى ليتـوانيا لن يتلقـوا الأوامر من جماعـة فى المنفى ، وهى التى أنهت وقطعت تعاونها مع الألمان فقط حينما تبدت بوادر انتهاء الحرب ووضعها أوزارها .

وكـان من بين أقلية المنشقين « ستـاسيس زاكيفيس » المؤرخ الذى كـان يبلغ من العمـر الثالثـة والثـلاثين وكان قـد درس فى أكسفورد وكـان يتميـز بشعوره الـوطنى الجارف والقومية الطاغية .

وفى أثناء الحرب ، كان مستشاراً للحكومة الألمانية المحتلة . وهرب « زاكيفيس » مع الألمان فى خريف عام ١٩٤٤ إلا أنه فى شهر مايو ١٩٤٥ تدبر مسألة العودة إلى بـــلاده « ليتوانيا » من الدانمارك ليلتحق بالفلاحين .

وتم تحذيره قبل أن يستقل الزورق من أنه سوف يواجه الاعتقال فور وصوله على

أيدى رجال المخابـرات السوفيتية المعروفة باسم لجنة أمن الـدولة أو الـ « كى ـ جى ـ بى » .

ولم يكن معروفـا لدى مجلس الـ « فليك » لدى عـودته إلى ألمانيا فى يوليـو من عام ١٩٤٥ ، واتصل بالمستر « ماكيبين » وممثل آخر لأجهزة المخـابرات البريطانية ألا وهو الميجور « جـون لودزوس » الذى كـان أبواه قد هـاجرا من ليتوانيـا إلى بريطانيـا منذ سنوات عديدة وكانوا يتحدثان اللغات بطلاقة .

وحينما تفجرت الخلافات السياسيـة ، أغرى « ماكيبين » المستر زاكيفيس بالعمل لصالح المخابـرات البريطانية السرية وليس المكتب الثـانى الفرنسى ووصـل زاكيفيس إلى « طونيجين » فى أواخر عام ١٩٤٥ مـرتدياً ملابس جديـدة وأنيقة ، ومستقلا سيارة ومزوداً بأمـوال نقدية ضخمـة . كما كان يستعير أيضـاً اسماً جديداً وهـو « ستايس زيمانتس » .

كان زيمانتس نواة العملية الجديدة التى ستقـوم بها المخابرات البريطانية السرية فى ليتوانيا . وانضـم إليـه الدبلوماسى الذى يـدعى « ستاسيس لوزوريتس » وصـحفى مشهور يبلغ من العمر الحادية والثلاثين كان قد هرب من الغرب فى أوائل عام ١٩٤٥ ، واسمه « جوناس ديكسنيس » .

وفى خريف عام ١٩٤٥ تطـوع ديكسنيس للعودة إلى ليتوانيا ليقـوم بتقييم موقف الـ « فليك » وهل كان فعلا ممثلا للفـلاحين المحاربين المقاتلين أم لا وأيضاً لتقييم مدى ونطاق الانتفاضة الناشبة ضد السوفيت .

وعرض «روبرت أندرسون» احد كبار ضباط الاستخبارات فى السفارة الأمريكية ، تقديم المال وأجهزة الراديو والـلاسلكى والأسلحة لأى طالب لها يكون جاداً ويستطيع أن يقيم شبكة معلومات تجسسية فى لاتفيا .

وقام بتشغيل اثنين من اللتوانيين للاتصالات مع أكثر المصادر أهمية وهو « هوجو جينترز » ممثل حزب « اولمانست » شبـه الفاشى الذى كان يديـن بالكثير من المبادىء الفاشية .

وفى اغسطس ١٩٤٥ ، طلب أحد ممثلى المخابرات البريطانية السرية من جينترز ان يختبر ويتحسس من « أرثر ارنيتس » إمكانية عودته إلى روسيا وإعادة فتح الاتصالات اللاسلكية بـالراديو . وبعد ذلك بيومين ، أرسل جينترز تقاريـره أن « ارنيتس » بحاجة إلى القليل من الإقناع .

obeikandi.com

ورحب بفرصة الخدمة من أجل القضية الوطنية . وكانت مهمة « أرنيتس » هى العودة إلى « لاتفيا » ، واسترجاع جهاز الراديو الخاص به وكتب الكود والشفرة التى كان قد أخفاها إخفاء تاماً وبعناية قصوى هناك منذ ثلاثة أشهر وإقامة الصلات مع السويد . وتتابعت المزيد من التعليمات إلا أنه طمأن بأن البريطانين سوف يرسلون زورقاً لرحلة العودة .

وبعد ذلك بأسبوعين ، تم تجنيد عملاء ثلاثة آخرين هم : جانيس شميت وهو ضابط سابق فى الجيش الألمانى برتبة الليفتنانت وكان قد تم تجنيده لحراسة مشغل الراديو ، و « ليمونيس بيترسون » و « إدواردس أندرسون » وهما اللذان تقرر أن يشكلا فريقاً ثانياً .

وفى ليلة ١٥ أكتوبر ، اقترب الرجال الأربعة من ساحل وغابات « كورلاند » فى زورق سريع غالى التكاليف مزوداً بالأجهزة ، إلا أن عواصف الرياح الهوجاء قلبت الزورق على بعد حوالى مائة ياردة من الشاطىء . وجعل الرجال الأربعة يكافحون الأمواج والرياح ويسبحون من أجل بلوغ الشاطىء وتركوا وراءهم الأسلحة والعتاد والأجهزة وإمدادات الطعام والمال ، متوجهين صوب الغابة .

وعند بزوغ النهار ، عثرت دورية حدود على الحطام والبقايا التى تدينهم وتجرمهم ، وكانت الأمواج قد قذفت بها إلى الشاطىء على الرمال ، وتسبب عن ذلك نصب مصيدة واسعة النطاق للقبض عليهم .

وبعد ذلك بيومين تم اكتشاف أمر كل من بيترسون وأندرسون . وانهارت مقاومتهما تحت وطأة التعذيب وكشف وجود « أرنيتس » وتم إلقاء القبض على العميل وفعل ذلك المخابرات الروسية الـ « كى - جى - بى » بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى ميناء « فيننسبيل » وحينذاك أرشد عن الراديو المختبىء واعترف بتفاصيل العملية .

وعلى الرغم من أن رجال المنفى فى السويد زعموا بأنه تم استخدام التعذيب لاستخراج الاعترافات من أرنيتس إلا أن « لوكاسيفيك » كان دائما يذهب إلى أن التهديد الخفى والكامل لايزال كافياً لتوخى الحذر . ولم تبد أجهزة مخابرات الـ « كى - جى - بى » السوفيتية أية شفقة أو رحمة .

وأرسل « لوكا سيفيك » باستنتاجاته الأولية إلى رؤسائه . وقال : إن البريطانين استأنفوا أنشطتهم المعادية للسوفيت التى كانوا يقومون بها قبل الحرب . وكان الدليل دامغاً لاسبيل إلى تفنيده على الرغم من أن الرجال الأربعة المزودين بأجهزة الراديو لم

يقترحوا القيام بعملية أخرى . وعلى أية حال ، كان العمل الإضافى مطلوباً .

وشق التقرير طريقه عبر القنوات الرسمية إذ وصل أولا إلى « البيرت بونديوليس » ، من الاستخبارات المضادة ، وأخيراً إلى « فيكتور كوزينس » أحد النواب الأربعة لرؤساء الـ « كـى ـ جى ـ بى » فى لاتفيا الذى أرسـل تقاريره إلى « الفـونس نوفيكـس » وزير الداخلية .

وتم اتخاذ أربعة قرارات هامة اتخذها الـوزير بدون استشارة كبار هيئة العاملين معـه ، ولهذا السبب ، استـدعى « نوفيكـس » ، المستر « كوزينس » ، وآمـز من النـواب الأربعة ، والجنرال « جانيس فيفرز » لمناقشة تقرير « لوكاسيفيك » .

واطلع « فيفرز » على تفـاصيل عملية الخداع الخاصة بالـــ « ترست » واقترح على الوزير أن تتم الموافقة من موسكو على شن عملية مضادة كلاسيكية . ألا وهى التظاهر أمـام البريطـانين بأنهم فى الـواقع ليس لهم مشغل راديـو مـوالى فى الموقع وبعـد ذلك ينتظرون تداعيات الأحداث .

وتم تقديم توصيـات « فيفرز » وتقرير « لـوكا سيفيكس » إلى الجنرال « سيرجى كروجلوف » ، نائب منطقة « بيريا » الذى كان يشرف على قمع الفلاحين الليتوانين . كان « كروجلوف » فى الاحتمال الأعظم أحـد ضباط الـ « كى ـ جى ـ بى » القلائل الذين لم يدهشهم وصول العملاء البريطانين.

وجاءت تقـارير تقـول بأن الاستخبارات السريـة البريطانيـة استأنفت جهـودها لاختراق الاتحاد السـوفيتى .

وعلى مدار سنوات الحرب ، استخدمت « لجنة أمن الـدولة » السوفيتية أو الـ « كى ـ جى ـ بى » بالاشتراك مع المخابرات الحربية البريطانية المعروفة باسم « أم ـ أى ـ ٥ » والمخـابـرات السريـة البريطـانية ، العمـلاء الألمان المأسـورين لنقل رسـائل الـراديـو اللاسلكية إلى مقار استخباراتهم الرئيسيـة ، وأعطوا الانطباع بأنهم إنما كانوا يعملون لصالحهم ويرسلون بالاستخبارات الحقيقية .

وتماماً كما انخـدع هتلر وظن أن الإبـرار الأرضـى للحفاء على القـارة الأوروبية فى يونيـه ١٩٤٤ سيكون فى منطقة « كاليـه » وليس فى نورمانـدى ارتبك وشوش الجيش الأحمر السوفيتى ، جهاز « فيرماخت » أثناء تقدمه صوب الغرب .

على أية حال ، فقد « لوكا سيفيكس » إمكانية استخدام « أرنيتس » أو الآخرين من أجل عملية خداع مماثلة . أحد النواحى الأقل احتراماً للجنرال « جانيس فيفرز» فيما يتعلق بتاريخه الماضى كانت سمعته بأنه « سادى » أو يعانى من السادية : « وهو انحراف جنسى يتلذذ فيه المرأ بإنزال صنوف العذاب لمحبوبه » ـ وذلك فى سجن « لوبيانكا » فى موسكو أثناء حملة التطهيرات الكبرى التى قام بها ستالين ضد خصومه وأعدائه .

إذ أصبح التعذيب آنذاك عمله الروتينى والمعتاد والدورى المنتظم حينما عاد إلى « ريجا » المطلة على البحر البلطى . وفى حالة « أرنيتس » والعملاء الثلاثة ، أصدر « فيفرز » أوامره بعدم الرحمة أو إبداء أية شفقة ، وأطاعته زبانيته .

وكان المطلب الأساسى حينذاك هو إيجاد والقبض على مشغل راديو كان يعمل الاتصالات مع السويد إبان الحرب . . وطلب « لوكا سيفيكس » الاجتماع مع « اوجستوس برجمانيس » ، فى احد أقفاص أسرى الحرب فى منتصف شهر مايو . كان برجمانيس قد خدم فى الجيش الألمانى وعمل مشغلا للراديو لصالح جماعة « كوريليس » .

وكانت العقبة الكؤود الأولى هى كيفية إقناع « برجمانيس » ليخدم مع أعدائه السابقين . وفى أواخر ١٩٤٥ ، تم نقل برجمانيس من أحد معسكرات أسرى الحرب إلى زنزانة فى مقر للمخابرات السوفيتية الـ « كى ـ جى ـ بى » فى أحد أركان شارعى « لينين » و « أنجلز » بمنطقة « ريجا » على البحر البلطى .

وثارت ثائرة « برجمانيس » وأخذه الرعب فأعرض عن محاولات تجنيده . إلا أن توتره زال عنه حينما تحدث « لوكا سيفيكس » عن اهتمام الـ « كى ـ جى ـ بى » بعقاب أولئك الذين هم أعداء حقيقيون للشعب السوفيتى ، وليس أولئك الذين هم على شاكلته والذين تم تعبئتهم .

أومأ « برجمانيس » برأسه موافقاً على أن مستقبله هو فى روسيا . والذى أدهشه أن رجل المخابرات السوفيتية رد عليه آنذاك جواز سفره وسائر أوراقه ، وإذناً بمغادرة الـ « كى ـ جى ـ بى » . أما الشرط الوحيد الذى أطلق سراحه بعد تعهده بالوفاء به فهو أن يبقى ويمكث فى بيت توفره له استخبارات الـ « كى ـ جى ـ بى » .

وفى الأسابيع التالية ، نمى « لوكا سيفيكس » أواصر الصداقة معه . وعقد معه

obeikandi.com

محادثات وأحاديث طويلة عن حروبهم المتوالية، وشبابهم، وعائلاتهم، والمستقبل . وبنهاية الأشهر الثلاثة، ذكر « لوكا سيفيكس » لهذا الصديق الصدوق بأنه فى حاجة إلى شخص ليقوم بعمل الاتصالات اللاسلكية بالراديو على بريطانيين فى السويد .

وفى مارس ١٩٤٦، شرع برجمانس وكان « لوكا سيفيكس » جالساً بجواره فى استقبال إشارات ونداء « أرنيتس » التى جاءت تماماً فى الوقت المضبوط الذى اتفق مع الجدول الزمنى المحدد والذى ساير تعليمات « أرنيتس » .

وبث الرجلال ثلاثة اتصالات كل أسبوع على مدار الأشهر الثلاثة التالية، بإشارة موجه قصيرة وبدون أن يلقوا أية استجابة . وفى النهاية وبحلول منتصف شهر يونيه، جاء الرد على رسالة « برجمانس » وعندها فصل ضابط استخبارات الـ « كى - جى - بى » الراديو، بدون الاعتراف بإرساله هذه الرسائل، وقال : « دعهم يتعجبون لماذا افتقدنا فجأة اتصالاتنا المجدولة . وسوف تتحول دهشتهم إلى قلق والقلق سوف يتحول فى النهاية إلى راحة والراحة إلى تصديق .

وبناء على أوامر « موسكو »، احتفظ « لوكا سيفيكس » على مدار ثلاثة أسابيع بصمته حينما كان يشغل الراديو فى ستوكهولم يرسل ويبث بصفة دورية إشاراته حسب الجدول الزمنى .

وعلى مدار الأسابيع التالية، استطاع مشغل الراديو فى السويد أن يلتقط سلسلة من الأسئلة كانت لندن تأمل من ورائها أن تقدم دلائل قاطعة حول هوية « بيرجمانيس ومصداقيته » . فأجاب « بيرجمانيس » بالرفض قائلا : كلا، إننى لم أتقابل مع ارنيتس إلا أننى استطعت العثور على جهاز الراديو الخاص به . واكتشفت حيثياته من رسالة وصلتنى من آخرين فى تنظيم « كوريليس » .

فحدث أن تلاشت شكوك رجال الاستخبارات فى برودواى قليلاً . إلا أنهم بقوا شاكين ومرتابين حول امتناعهم عن ذكر أى شىء حول المهمة الجديدة للمستر « بيرجمانيس » .

وتغير المزاج السياسى فى وزارة الخارجية تغييراً جوهرياً منذ شرع « أرينتز بالخروج برحلته البحرية المشئومة . وفى صيف ١٩٤٥، أزعج دفء المعاملة بين الإدارة الأمريكية والزعيم السوفيتى ستالين، أزعج « ارنيتس بيفين »، وزير الخارجية البريطانى .

كان « بيفين » وهو أحد زعماء نقابات العمال المشاهير الذى كانت آراؤه وسياساته من شأنها تشكيل الكثير من عمليات المخابرات البريطانية السرية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية داخل روسيا على مدار السنوات المتبقية من ذلك العقد من الزمان ، عانى من المؤامرات وازدواجية العملاء والجواسيس وهم الذين اخترقهم الشيوعيون أثناء سنوات ماقبل الحرب .

ولذلك أصدر نصائحه قائلاً : « ليس بوسعك أبداً أن تتعامل مع الروس إذا كنت تكذب عليهم ، أو إذا رقدت على الأرض وسمحت لهم بأن يطأوك بأقدامهم .

واستمرت تحفظات وضبط النفس عند « بيفين » إزاء « مولوتوف » و « ستالين » ، الذى كان يتهمه « بيفين » بأنه ـ أى الزعيم الروسى ـ مسئول مسئولية شخصية عن مصرع مالا يعد ولا يحصى من الفلاحين السوفيت ، استمرت حوالى الشهرين من الزمان .

وعندما تقابل وزراء خارجية الدول الأربعة المتحالفة لأول مرة فى لندن فى سبتمبر ١٩٤٥ ، صارت عدوانية « بيفين » واضحة جلية لأول وهلة . إذ انتقدعلانية توريدات البترول التى كان يقدمها الروس لهتلر ليقصف لندن بالطائرات .

وكلما زادت الخلافات ، ارتفعت حدة التوتر . وزمجر بيفين معنفاً المسئول الروسى قائلاً : « إنك إنما تتصرف كما لو كنت نازياً » . وبعد أن تمت الترجمة خرج « مولوتوف » من المؤتمر غاضباً بسرعة . وفى اليوم التالى ، اعتذر بيفين إلا أن مخاوفه بشأن السوفيت واحتمال انتهاكهم للمصالح التقليدية لبريطانيا تأكدت بسبب مطالب « مولوتوف » لإقامة قواعد سوفيتية فى ليبيا وأماكن أخرى فى دول البحر المتوسط .

وتزامنت هذه المطالب مع انتهاكات الاتفاقيات والقلاقل فى أوروبا الشرقية واليونان ، والاضطرابات الجديدة فى الهند وهى التى بدت كما لو كان مثيروها هم السوفيت وأصر بيفين على عدم تسريب أخبار تشدده إلى الصحافة على الإطلاق ، واعترف لمساعديه قائلاً : « إن الأمر الذى يبعث على الاكتئاب هو المدخل الواقعى والأمانى للروس والغياب الكامل لأية اعتبارات خاصة بأهمية السلام لصالح ونفع الجميع .

وفى الشهر التالى « شهر أكتوبر » اتفق « بيفين » مع المستر « أتلى » على أن الوقت قد حان حيث يجب ان يكون هناك مكاشفة وحسم مع الامبرياليين الأيديولوجيين . غير

أن البريطانين كانوا يتفاوضـون من موقف الضعف كما أن عواطفهم لم يكن يشاركهم فيها البيت الأبيض الأمريكى .

ولقد تأرجح ترومان منذ أن أصبح رئيساً لأمريكا شأنه فى ذلك شأن تشرشل ، بين الإشادة بستالين وأمانته ، وبين تحذير الروس من أنهم بصدد التخطيط لفتح بلدان العالم كلها . وكان ترومان يعتقد مثل وزير خارجيته جيمس بيرنيس الذى كان يعانى من الخوف المرضى من الانجليز ، يعتقد أن التفاوض مع ستالين وترومان مماثل للمؤتمرات التى كان يحكيها أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى المتمردون فى الكونجرس .

إلا أن الرئيس شعر فى خريف عام ١٩٤٥ بأنه قد خدع ، والذى خدعه هو الكريملين . وبعد انقضاء احتفالات الكريسماس ، اشتكى ترومان فى خطاب أرسله إلى وزير خارجيته بشأن الاستيلاء الروسى على أراضى فى بولندا وفارس (إيران حالياً) ، والتعقيدات الجديدة ضد تركيا .

وسرعان ما اجتمع الرجلان علي اليخت الرئاسى « ويليا مزبيرج » الراسى فى نهر « بوتاماك » . واستبد الغضب بالرئيس ترومان فصاح : « مالم نجابه روسيا بالقبضة الحديدية والخطاب شديد اللهجة فإن حرباً أخرى سوف تندلع ... واستطرد قائلاً : « ليس هناك إلا لغة واحدة يفهمونها ، وتلك هى لغة الجيوش والأرقام : كم عدد الفرق العسكرية التى تمتلكها ؟ وأعتقد أننا لايجب أن نركن إلى الحلول الوسط بعد الآن . لقد ضجرت من تدليل السوفيت » .

وانعكست إحباطات وشكوك ترومان علي الدبلوماسين الأمريكين والبريطانيين فى موسكو الذين علموا الكثير عن مخاوف « بيفين » ، على الرغم من أنه كان لايزال محالاً من الناحية السياسية إعلان أية شكوك حول حليفهم الروسى فى زمن الحرب .

أرسل « فرنك روبرتس » الوزير الصغير (السفير) من السفارة البريطانية فى موسكو بالأدلة على تعاظم هجمات الصحافة الروسية على بريطانيا وبخاصة سياساتها إيزاء ألمانيا . وأرسل بتقاريره التى جاء فيها أن ماكينة الدعاية السوفيتية قالت بأن نوايا الكريملين هى استغلال ضعف بريطانيا لتدمير الإمبراطورية .

وكتب يقول : « كان هناك إحياء هائل للأيديولوجية الماركسية المنشودة الأمر الذى ترك الانطباع بأن الشعب السوفيتى هم الشعب المختار وأنهم محاطون بعالم

معـادى » . وكـان تفسيره للأمور تفسيراً مـزعجاً إذ قـال : إن روسيا صارت فى حـالة مزاجية تدعوها إلى الحرب باستمرار وهو أمر من شأنه أن يفضى إلى القيام بمغامرات عسكرية فى فصل الربيع .

وثمة حـادثة واحـدة استقرت على وجـه خاص إزعـاج ومخاوف روبرت ألا وهى اتهام « مولـوتوف » فى حـالة تعبئـة ، وأنها كانت تتعـاون مع الجنرالات البـولنديين ، والروس البيض المعادين والمناهضين للشيوعية ، فى ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وزعم « مولوتوف » أنهم إنما كانوا يعدون العدة لخوض الحرب فى المستقبل . وثمة اتهام مشـابه نطق بـه « انـدريه فيسينسكى » فى نفس الـوقت ، وكـان يشغل منصب النائب العام إبان المحاكمات التى وقعـت على عهد حركة التطهيرات الكبرى التى قام بها ستالين ضد خصومه .

حيث قـال: إن الروس البيض تم حشـدهم فى الموانىء البريطـانية وأن الاستنتـاج الـوحيد الـذى يستطيع استخلاصـه هو أن بـريطانيـا كانت تعـد العدة لتكـرار نفس التكتيكات التى كانوا يستخدمونها فى أعقاب اندلاع الثورة البلشفية .

وكـان بين هؤلاء السـاسة فى وزارة الخارجيـة الـذين قرأوا تقـارير « روبـرتس » وتحذيراته ، أحـد الدبلوماسيين صغار السن وهـو « توماس بريميلـو » الذى سبق له الخدمة فى القنصلية البريطانية فى « ريجا » عام ١٩٣٩ .

ولقد تصـاعد عـداء « برايمالـو » ضد الـروس فى أعقاب الحرب لـدى سماعه عن اختفاء الكثير من أصـدقائه من دويلة « لاتفيـا » أثناء الاحتلال الـروسى الأول . وبعد قـراءة التقاريـر عن أن الزعماء السـوفيت أصبحـوا « مدمنين بـدراسة التـاريخ » وأن الصراع الناشب فى القـرن التاسع عشر مع بـريطانيـا عاد يطل برأسـه من جديـد وأنه سوف يتكرر مرة أخرى .

وتنبأ « برايمالو » أن ألمانيا الغربية سـوف تتحول إلى الشيوعية ، ويتبعها اليونان وإيطاليـا وفرنسـا ، بغض النظر عن أوروبـا الشرقية التى سـوف تتحول للشيـوعية لامحالة .

وتم تـوصيل رأى « برايمالـو » إلى « كـريستـوفر وارنـر » رئيس القسم الشمالى بوزارة الخارجية البريطـانية . وكتب وارنر ـ عندما علم أن وزارة الحربيـة البريطانية .

بصـــدد تشكيل خطط طــوارىء لملاقــاة الصراع المتــوقع مــع روسيــا وأن أجهــزة الاستخبارات البريطانية السرية كانت تساند الجماعـات المعادية للشيوعية ـ يقول لابد من مواجهة سياسات فرض القوة الشريرة التى ينتهجها السوفيت .

وجعل يقول : إنه « لايجب علينا أن نكون من الحماقـة بحيث لانأخذ كلام الروس على محمل الجد ، ولقد تعلمـون أن سائر أنشطة روسيـا فى الأشهر الماضية تؤكـد هذه الصورة ... ففى شرق أوروبـا حيث توجـد دول البلقان ، وفى بـلاد فارس ومنشـوريا وكوريـا وفى المنطقة المشتركة بين روسيـا وألمانيا ، وكذلك فى مجلس الأمن التـابع للأمم المتحدة ، مسـاندة روسيـا للأحزاب الشيـوعية والجهـود الشيوعيـة لاختراق الأحزاب الشيوعية وتأليف الأحزاب اليسارية تحت الزعامة الشيوعية ، فى السياسة الاقتصادية الخارجيـة للاتحاد السـوفيتى .. فى كل حـالة من صـور الشئـون الخارجية تظهـر فى الصحافة السوفيتية وإذاعاتها .... الخ

وقال وارنر محذراً سيكون ثمة مخاطر إذا فسر ستالين استجابة بريطانيا على أنها ضعف واسترضاء .

أوصى وارنـر بأنه فى أى مكـان يوجـد فيه حلفـاء طبيعيون لبريطـانيا يقـاتلون الشيـوعيين ، ينبغى على بريطـانيا أن تقـدم « كـافة أشكـال العون الأخـلاقى والأدبى والمادى كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً » إلى القوات المناهضة والمكافحة للشيوعية .

ولقد ضخم من أهمية آرائه المحللـون الاستخباريون فى أجهزة المخـابرات السرية البريطانيـة ، وكان بعضهم قـد أطال فى التأكيد والجدال بأن الكـريملن لايزال ملتـزماً بسياسته التى تستهدف السيطرة على العالم .

وفى عام ١٩١٨ فى أعقاب الثـورة الروسية ، أنشأت بريطانيا لجنـة تيقظ ومراقبة لرصد تحركات البلشفية ، وفى الظروف الجديدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كررت بريطـانيا المحاولة وأنشأت لجنـة جديدة خـاصة بالشئون الـروسية من أجل تنسيق استجابات بريطانيا وردها على أية هجوم روسى طويل المدى ضد الغرب .

واجتمعت اللجنـة الروسيـة فى أولى لقاءاتها فى ٢ أبـريل عام ١٩٤٦ وتـزامن ذلك الاجتماع مع أول تغيير فى السيـاسـة فى واشنطن . إذ وافقت هيئـة الأركـان المشتركـة السوفيتية رسمياً على الاعتراف بأن روسيا صارت « أعظم تهديد ضد الولايات المتحدة فى المستقبل المتطور » .

و اتخذت قرارات بإنشاء قواعد عسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتى من كل الجهات بدءًا من جزيرة جرينلاند وأيسلندا عبر القطب الشمالى وحتى « أوكيناوا » .

وفى اليوم التالى أرسل « جورج كينان » المسئول الأول فى السفارة الأمريكية فى موسكو برقية من حوالى ٨٠٠٠ كلمة إلى مسئولى وزارة الخارجية الأمريكية طالبت استيضاحاً وشرحا للعداء السوفيتى فى مواجهة رغبة واشنطن بإقامة علاقات صداقة . وأصبح كينان أيضاً فى حالة وهم وارتباك بشأن تصرفات الزعيم السوفيتى ، ونجا منه فى أعقاب كلمة ألقاها ستالين يوم ٦ فبراير فى مسرح البولشوى ، اتضح منها نزوعه للحرب والقتال .

وقال : إن الزعيم السوفيتى يعتقد بأن بلاده محاطة بعواصم معادية يتعين على روسيا مقاتلتها ومحاربتها فى القريب العاجل . وأكد على محاولة السوفيت زعزعة استقرار الغرب اعتقاداً منهم بأن الانسجام الداخلى للمجتمعات الغربية لابد وأن يتم تمزيقه وبث الفوضى والخراب كشرط أساسى لضمان الأمن للسوفيت .

وكتب « كينان » فى تقريره يقول : « إن مواجهة السوفيت تحتاج إلى نفس الاستيراتيجية المتكاملة كما لو كنا فى حالة قتال فى حرب شاملة طالما أن السوفيت يمثلون تلك المخاطر الجمة لوجودنا ومصالحنا » .

تم طباعة وتوزيع تقرير « كينان » بين مئات كبار المسئولين والساسة وصناع القرار الأمريكى ، وعلى الرغم من أن البيت الأبيض كان لايزال مصراً على الحفاظ على مواقفه الودية إزاء ستالين ، إلا أن الكثيرين يؤرخون بالانقلاب الأمريكى على الستالينية بوصول برقية المستر « كينان » . إلا إنه كانت هناك بعض الحدود والقيود .

إذ رفض ترومان ومسئولوه أراء « بيفين » بأن « مولوتوف » بلغ درجات الجنون بهجماته بل إنه تجاوز الجنون بالفعل ، وتجاهله أمر برقيات وتقارير المستر « كينان » الاستخبارية التى جاء فيها أن السوفيت يتوقعون من كل من فرنسا وكل ألمانيا أن تتحولا إلى الشيوعية .

وصارت الدلائل على الجاسوسية السوفيتية من الكثرة بحيث لايمكن تجاهلها . وفى فبراير أخبر المسئولون الرئيس الأمريكى ترومان بأن « هارى وايت » مساعد وزير الخزانة ماهو إلا جاسوس سوفيتى وأن « الجيرهيس » بوزارة الخارجية الأمريكية تحوم حوله الشكوك والظنون .

وقالت تحقيقات أجريت فى كندا أن إحدى حلقات الجاسوسية السوفيتية كانت تعمل هناك منذ عام ١٩٢٤ . وفى ١٥ فبراير ، ألقى البوليس الكندى القبض على ستة عشر شخصاً ووجه إليهم تهمة السعى لكشف وفض أسرار القنبلة الذرية الأمريكية . وبعد ذلك بأربعة أيام ، تم إلقاء القبض على عالم الذرة البريطانى الدكتور « آلان نان » ووجهت إليه تهمة تمرير عينات من اليورانيوم المشع (٢٣٥) إلى أحد عملاء السوفيت . وكانت الأدلة ثابتة عليه بحيث أنه لم يملك إلا الاعتراف .

وظلت الحكومتان البريطانية والأمريكية فى لندن وواشنطن صامتتين على الصعيد العلنى وكبح الساسة انتقاداتهم على مضض وتمالكوا انفلاتة أعصابهم المتوترة إلا أن « كريستوفر وارنر » وكبار المسئولين الآخرين خشوا من أن الحركة الشيوعية العالمية مثل « الطابور الخامس » الألمانى كانت تمد السوفيت بشبكة تجسس هائلة هدفها تعويض التعوذ البريطانى والأمريكى فى جميع بقاع العالم .

إلا أن ونستون تشرشل حذر قائلاً : إن العداء الروسى يجب أن يتم إيقافه من أجل تفادى الانزلاق إلى « ظلام جديد » . وزعم بعد ذلك أنه كان قد أصدر أوامره إلى « مونتجمرى » إبان جمع وحشد السلاح الألماني لدى هزيمتهم الرايخ الثالث من أجل تكديسه حتى يمكن إخراجه بسهولة مرة أخرى إلى الجنود الألمان الذين يتعين علينا أن نعمل معهم إذا استمر التقدم السوفيتى .

واكد مونتجمرى على أنه أطاع الأوامر وفسرت موسكو مذهب تشرشل على أنه مقدمة هجوم سرى جديد . ولقد كانت العقبة أمام المخابرات البريطانية السرية لشن هجوم مضاد خطير هو إفلاس بريطانيا وحذر وحرص « بيفين » إلا أنه كانت هناك درجة كبرى من الشكوك السياسية الكافية التى سمحت لضباط الاستخبارات البريطانية بأن يتبعوا فطرتهم .

وبالنسبة إلى مخابرات أمن الدولة السوفيتية المعروفة باسم الـ « كى - جى - بى » فإن الدلائل الواردة من أوروبا الغربية تقول بأن البريطانيين أصبحوا للمرة الثانية وفى أعقاب الثورة البلشفية ، يحشدون ويجمعون ويجندون الشيوعيين المنشقين من أجل القيام بعمليات مستقبلية .

وفى أثناء الأسابيع الأخيرة من الحرب ، تقابلت الجيوش البريطانية والأمريكية فى ألمانيا والنمسا مع آلاف الجنود الذين كانوا يتحدثون اللغة الروسية ولكنهم كانوا

obeikandl.com

يرتدون الزى الألمانى . ولقد جند الألمان القوازقة والعناصر من جورجيا وأوكرانيا والقوقاز وبلدان البحر البلطى للقتال ضد عدوهم التاريخى ألا وهم الروس .

وفى آخر أيام الحرب ، هرب آلاف الأحياء من تلك الفرق العسكرية صوب الغرب ، فيما وراء قبضة الجيش الأحمر ، للاستسلام إلى الأمريكان والبريطانيين . وكانوا فريقا من الرعايا الروس البالغ عددهم حوالى المليونين الذين أنهوا الحرب فى الغرب ، واختلطوا مع سجناء الحرب المحررين . وفقا للمعاهدات السوفيتية تقدر الجميع هؤلاء أن يعودوا بمقتضى اتفاقيات « يالطا » .

ولقد كانت الاتفاقية بين الزعماء المتحالفين الثلاثة فى يالطا عام ١٩٤٥ معلماً هاماً من حيث نواحٍ كثيرة فى العلاقات القائمة على زمن الحرب .وكان تشرشل قد وافق فى أعقاب استسلام الألمان فى نهاية الحرب العالمية الثانية على اعتبار أن أى شخص من الرعايا السوفيت عشية اندلاع الحرب عام ١٩٣٩ سوف يتم تصفيته على أنه روسى بغض النظر عن رغباته أو أمنياته ، وبذلك سيتم تسليمه إلى ضباط الجيش الأحمر السوفيتى .

ومن الناحية النظرية ، بدا أن هذه العملية ستكون بمثابة المهمة العسيرة غير الإنسانية . ذلك أن الجنود البريطانيون والأمريكين لن يتعاطفوا مع الروس الذين ـ لأسباب لايفهمونها ـ تطوعوا أو وافقوا على القتال إلى جانب صفوف النازيين .

ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء الروس مخاوف وأسباب تدعوهم إلى خشية سوء المعاملة لدى العودة طالما أنهم سوف يعتبرون فى أنظار الكريملن خونة . غير أن هذه المشاعر أو الاعتبارات لم يكن لها أية تقدير لدى الحلفاء الذين صاروا فى مايو ١٩٤٥ مثقلين بأعباء توفير الكم الكافى من الطعام والتسهيلات ، فكانوا يسرعون من ترحيل أسرى الحرب المحررين فى منطقة روسيا ، وأرادوا أن يرسلوا أية أسباب من شأنها أن تضرم ميزان الحقد لدى ستالين . وتم بالفعل شحنهم على عربات وقطارات إلى روسيا ، مما أثر على نفسية « بيل كويتن » الذى روى الواقعة وكان أحد الضباط الأمريكين الشبان آنذاك ، وكان يرفض ترحيلهم لسوء المآل والضياع فى الاتحاد السوفيتى .

وبحلول منتصف شهر مايو ، احتشد الكثير من الضباط البريطانين الذين بلغ منهم اليأس منتهاه فى تنفيذ المهمة الموكلة إليهم ، وبخاصة فى النمسا وبلغ عددهم ٣٥,٠٠٠ تقريباً أغلبهم من القواقزة .

ومن الدروس التى علمنا إياها التاريخ أنه فى الأيام الأولى من السلام، شرح الزعماء القوازقة للجنود البريطانين الذين انتابتهم الحيرة والارتباك كيف أنهم ليسوا ولم يكونوا من الرعايا الروس ولكنهم كانوا ضحايا للإمبريالية السوفيتية، ومع ذلك ساقتهم الأقدار إلى الأعداء الروس. وقد كانوا يبغضون الأباطرة والقياصرة ويثير غثيانهم البلاشفة.

وليس هذا فحسب بل كانت الجنود القادمة من بلدان البحر البلطى يحاربون إلى جانب صفوف النازيين الألمان نكاية فى الروس الذين احتلوا بلادهم وشردوا أهاليهم.

إلا أن الكثير من الجماعات الروسية الذين قاتلوا إلى جانب صفوف الألمان، كانوا على صلة بوحدات «إس ـ إس» التى ارتكبت أنكى الفظائع والأعمال الوحشية فى تاريخ الإنسانية. واكتشف المحققون فى جرائم الحرب كيف أن أقلية من المجموعات كانت تخشاها أوروبا الشرقية أكثر من خشيتها وحدات «إس ـ إس» التى تنتمى إلى القوميات الخاصة بدولة «لاتفيا» على البحر البلطى. وكذلك «كتائب بوليس» ليتوانيا، وفرقة «جاليزين إس ـ إس» الأكرانية أو القوازقة.

ويقول «نيكولاى كرانسنوف» الحفيد الأكبر لأحد الجنرالات القوازقة المشهورين: «إنهم قاموا بالتجريد والسرقة كما لو كانوا من قطاع الطرق. وانتهكوا النساء وأحزموا النار فى المستوطنات، وإن سلوكهم المشين المهين ألقى بلطخة من العار سوف تجلل هؤلاء الذين قدموا القتال ضد الشيوعية ونفذوا المهام والواجبات بطريقة مشرقة وجريئة وجسورة.

أما الجنود البريطانيون فى جنوبى استراليا فقد كانوا إما جهلة مما يدور فى هذه الحروب من جرائم أو كانوا يعلمونها وأن ضحايا القوازقة على الأقل ليسوا من بين البريطانين. وعلى وجه اليقين تأثروا من حكايات السجناء ومآسيهم والمشاق التى تكبدوها حينما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية.

وبلغت القضية ذروتها ومنتهاها بنهاية شهر مايو حينما تلقى الليفتنانت جنرال تشارلز نايتلى، قائد الفيلق الخامس طلباً من القائد السوفيتى عبر الخط الفاصل بين المناطق المتنازعة، بعودة القوازقة.

وأعد الجنرال نايتلى العدة ليذعن ويطيع الأمر حتى أعلن الميجور جنرال «روبرت أربوثنوت» قائد الفرقة الثامنة والسبعين أنه رفض تنفيذ الأمر؛ لأن القوازقة كانوا «

من المهاجرين القدامى » الذين حاربـوا مع البريطانيين حوالى خمسة وعشرين عاماً من قبل وأصبحوا غير خاضعين لمقتضيات معاهدة « يالطا » .

ولما اقتنع ، وافق نايتلى على الضغط على الفيلـدمارشال هارولـد اليكسندر ، القائد العام للقـوات . وكان أن صـار الكسندر بطـلاً محلياً بصفته قائد المتطـوعين البريطانين للحرب ضـد الروس فى منطقة دويـلات البحر البلطى ، ومن أجل حمايـة استقلال تلك الدويلات ضد الروس .

رفض « الكسندر » مجادلات « كيتلى » الإنسـانية . وأصر الكسنـدر الذى نقل عن تشرشل وإيدن تعليماتهما الشخصية ، على إطاعـة الأوامر . وتم تسليم ٢,٠٠٠ ضابط قوزاقى إلى الروس حيث سيلقون الموت المحتوم ، وصاحب ذلك مشاهد من التأثر البالغ والأحزان لدرجة أن بعضهم انتحر فى مايو ٢٩ ، بمدينة « جودينبرج » .

وفى أول يونيه ، أصدر الجنود البريطانيون أوامرهم لأولى الدفعات الباقية وقدرها ٣٣,٠٠٠ جندى وزوجـاتهم وأطفالهم بـركوب القطـارات بدءاً بـالشروع فى الرحلـة . فتفجرت المخاوف والذعر وجعل الكثير من القوازقة الذين كرهوا العودة ، جعلوا يلقون أطفالهم وأنفسهم فى نهر « درو » الملىء بالدوامات والأمواج .

وبحلول منتصف شهر يونيه ، حينما بدا أن العملية اكتملت مراحلها ، هرب حوالي ٤,٠٠٠ من الترحيل الإجبارى . غير أن عواقب ذلك كانت وخيمة إلى أبعد الحدود وانتقل ١٠,٠٠٠ أكرانى هـم أعضاء الفرقـة الأكرانيـة الأولى وكانـوا قد حـاربوا مع الألمان فى بولنـدا واشـتركوا فى المذابح المروعة ، انتقلـوا بهدوء عبر جبال الألب إلى أحـد المعسكرات البريطانية فى « ريمينى » .

وبعـد وصـولهم فـوراً ، دمـر معظمهم وثـائق هـويتهم الحربيـة وزعمـوا أنهم بولنديون ، وليسوا من الـروس أو الأكرانيِّن من أجل إحباط ترحيلهم . وكان يتعين على بريطـانيا أن تعتمد مـزاعمهم الزائفـة ، واضطرت العسكريـة البريطانية والمسئـولون الحكوميون إلى تأييد مطالبهم .

ومكث البعض الآخر فى ألمانيا . وأرسل الدكتور « ألفريد فالدمانيس » نيابة عنهم ـ وكان وزيراً سابقـاً للمالية فى دولة لاتفيا ـ أرسل نيابة عنهم المارشـال الكسندر مذكراً إياه ببطولته المجيدة منذ خمس وعشرين عاماً سلفت . ومنذ ذلك الوقت ، كتب يقول : إن الكسندر كان رجلاً مثالياً نظر القوم إليه كصديق للشعب فى دولة لاتفيا .

وبعد ذكر أسماء الجنرالات اللاتفيين الذين تقابل معهم الكسندر أثناء الخدمة ، وكانوا جميعهم قد هلكوا سواء فى السجون السوفيتية أو فى سيبيريا . واشتكى « فالدمانيس » من أن ضباط فيلق لاتفيا فى ألمانيا قد زجوا بهم عن طريق الخطأ فى السجون الخاصة بمعسكرات المساجين .

وزعم أن ضباط لاتفيا وضعوا ثقتهم فى الماريشال البريطانى العظيم « سيك » باعتباره أملهم الأخير فى الخلاص من الظلم طالما أنهم لم يكونوا من المتطوعين بل من المجندين . وشعر الكسندر بالتعاطف معهم ، وقال « لقد كنت قائدهم وكانوا هم جنودى ، ولذلك فإننى أرغب فى فعل كل ما أستطيع من أجلهم » وكتب بذلك رسالة أرسلها إلى وزارة الخارجية البريطانية .

ووافق « برايمالو » على أن « اللاتفيين » لم يستحقوا المصير الواقع عليهم وحشدهم مع ضباط وجنود فريق « إس ــ إس » المغضوب عليهم . وصمم الرجل الدبلوماسى على عدم فصلهم عن أسرى الحرب الألمان طالما أنه « من المستحيل التمييز بين أولئك الذين تم تجنيدهم من أولئك الذين تطوعوا بمحض إرادتهم . واقتنعت العسكرية البريطانية بأنهم جميعاً كانوا قد تطوعوا للحاق والانضمام إلى فرقة « إس ـ إس » .

وأرسلت رسالة أخرى نيابة عن ١٠,٠٠٠ عضو من المساجين الذين ينتمون إلى فريق « إس ـ إس » التابع لجمهورية استونيا ، إحدى دويلات البحر البلطى ، إلى المستر « بيفين » عن طريق السفير « أوجست نورما » قال فيها : « إن الأغلبية اضطرت قسراً إلى الانضمام إلى الفيلق الألمانى ، وأنهم اضطروا للحاق بذلك الفيلق الذى كان الألمان يسيطرون عليه من أجل الانتقام من « الإرهاب الوحشى » الذى كانت تمارسه روسيا .

وتزامنت هاتان الرسالتان مع توسط المارشال جريجورى زوكوف للقائد مونتجمرى فى برلين . جاء فيها أن آلاف من الرعاياالذين ينتمون إلى قوميات البحر البلطى والذين أسرهم فى ألمانيا وألبسهم الأردية الألمانية والزى الألمانى ، يجب أن يتم إعادة ترحيلهم بمقتضى اتفاقيات يالطا .

ووافق الحلفاء بمقتضى إعلان موسكو الصادر عام ١٩٤٢ على أن مجرمى الحرب يجب أن يتم إعادتهم للمحاكمة فى المكان الذى ارتكبوا فيه جرائمهم . وحيث أن معظم جرائم الحرب النازية تم ارتكابها واقترافها فى أوروبا الشرقية ، كان أمراً محتوماً

أن يكون هناك خلل فى ميزان التبادل بين الرجال المطلوبين .

وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٥، وصل أحد ضباط الجيش الأحمر فى معسكر « زيديلفيم » لأسرى الحرب فى بلجيكا ، وهو مركز تجميع وحشد لجميع رعايا لاتفيا ، الذين هم مطلوبون للترحيل إلى روسيا من جانب الكولونيل « أرفيدس كريبيتر » لمحاكمتهم كمجرمى حرب .

أما المستر « كريبينز » فقد كان رئيساً سابقاً للأركان وقائداً عسكرياً لفرقة « إس ـ إس » اللاتفية ، وكان قد حارب متطوعاً مع الألمان على مدار مراحل الحرب . أما الميجور « تومسون » ، وهو محام بالجيش البريطانى الذى كان قد قدم الدلائل والبراهين الروسية ، وافق على أن هناك قضية واضحة منذ الوهلة الأولى وبالتالى أصدر التفويض اللازم بالانتقال .

ولقد اعتبر « برايمالو » أن قيادة « إس ـ إس » التى يتزعمها « كريبينز » فقد جعلت أنشطة الجندى تبدو « سوداء بعض الشىء » إلا أن تشارلز زارينز ، سفير لاتفيا أصر فى رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية على أن « كريبينز » كان رجلاً أميناً وطيباً .

وتم تجاهل انحياز « زارينز » فى تلك المناسبة إلا أن كريبينز من أجل إحباط عملية الانتقال حاول وارتكب محاولة انتحار فاشلة وأعلن أنه مريض جداً لدرجة أنه لايحتمل السفر وأنه لايصلح للسفر .

وفى نفس الوقت ، الذى تم فيه حماية المجرمين والقتلة ، تم تجنيد ٧٠,٠٠٠ ألمانى شرقى ، وفعل ذلك الجيش البريطانى ليصبحوا أعضاء بالجيوش البريطانية للخدمات الحربية . وزعم البريطانيون أن الأوربيين الشرقيين كانوا من العمالة الرخيصة وأنهم تم تجنيدهم من أجل رفع حطام وأنقاض الحرب ، والاضطلاع بالمهام الشاقة ، إلا أن السوفيت أصروا على أنهم قوات شبه عسكرية للاستخدام فى الحرب فى المستقبل ضد روسيا .

ولقد كانت هناك أسباب قوية تدعو السوفيت للشك حيث أن الكولونيل « أرفيدس كريبينز » لدى شفائه كان قد تقرر أن يتم استخدامه فى الجيش البريطانى .

وفى شهر مارس ، تم الدعوة لعقد مؤتمر « ليبيك »لدراسة التقارير التى عاد بها « جوناس ديكسينس » .. الذى هرب بنفسه إلى خارج أراضى ليتوانيا . وأخذ يشرح

« ديكسنيس » كيف أن شركاءه فى عملية الهروب ثم إلقـاء القبض عليهم . وحدث أنه لم يقم أى أحد بتحرى الظروف أو الاستقصاء عنها بالتفصيل .

وكان كل من « مـاكيبين » و « زيمانتاس » أكثر قلقاً واهتمامـاً حينما سمعا أن الـ ٣٠,٠٠٠ فلاح التشطين الذين كانوا يسببـون للسوفيت أخطر مصادر القلق والعناء ، صاروا لايثقون فى تنظيم « فليك » لأن زعماءه تعاونوا مع الألمان .

وقبل « مـاكيبين » و « زيمانتس » حكم « ديسكسنيـس » وابتهجـا من أن الـرجل الليتوانى وافق على العودة مرة ثانية مزوداً بأجهزة الاتصالات اللاسلكية والمال لإقامة الصلات المبـاشرة بين جهاز المخابـرات البريطانية السريـة والفلاحين . وسافـر للمرة الثانية بمصاحبة « فيتوناس ستـانينيس » بطريق البر مستخدماً جوازات سفر مزورة والرشاوى .

ولمـا وصلت الأنباء بأن الاستخبارات البريطانيـة السريـة قـد قبلت إرداتــه « ديكسينس » ، وعـرف بها مجلس تنظيم « فليك » المجتمع فى ألمانيا ، أصبح الانقسـام بين صفوف حركة المقاومة هذه أمراً لاسبيل إلى رأبه أو إصلاحه .

واتهـم تنظـيم « فليك » المستر « ديكسينس » بالتعاون مع النـازيين وتجاهـل « زيمانتـاس » الذى كـان أيضـاً يستحق اللـوم بنفس الدرجـة ، تجاهل تلك التـدابير الانتقاميـة كان ضباط المخـابرات البريطـانية مهتمين بدس العمـلاء الموثوق فيهم إلى داخل المنطقة . أما أنشطتهم على زمن الحرب فكانت بمثابة التاريخ الذى لاصلة له الآن بالحوادث الجارية .

وفى ليلة ٦ أغسطس ١٩٤٦ ، أبحـر زورق صيد مزود بكافـة الأجهزة والمعدات فى هدوء عبر مـوانىء « لاتفيا » ولما وصل إلى مبتغـاه ، قفز رجلان يحمـلان حقائب كبرى على الشاطىء واختفيـا فى الظلام الدامس . وكـانا عميلين للمخابرات البريطـانية للعمل داخل خطوط روسيا .

لم تكن تلك العملية جـديدة على المستر « تـومسون » ذلك أنه كـان قد قـام بعبور البحر أحد عشر مـرة من قبل إبان الحرب وأغراه ذلك للاضطلاع بهذه الرحلـة البحرية الأخيرة ، على أمل الوفـاء بالوعـود التى قطعتها المخابـرات البريطانية لـه بإعطائه المال النقدى والمزايا المالية لدى عودته .

وكانـت جماعـة « كوريليس » وعلى رأسـها « زاندى » الذى عمل أيضاً مـع « فالـديمارس جينترس » حتى مايو ١٩٤٥ ، كـانت مشهورة وكـذلك المسـتر « زاندى » الذى عـرف بأنه أحد دعـاة القومية والمحـاربين عن استقلال بـلادهم . ولقد أوضـحت متعلقاته الشخصية فيما بعد كيف أن أجهزة المخابرات البريطانية السرية لم تكن تهدف فحسب إلى بث أجهزة الراديو وأجهزة الاتصـالات اللاسلكية داخل لاتفيا ، وإنما كانت تهدف كذلك إلى تكوين شبكة كبرى من الجاسوسية الدولية .

كانـت استعدادات العملية تستهـدف أساسـاً التعتيم على الصلة التى تـربط بين منفذيها وبين أجهزة المخابرات البريطانية السرية . وكان المستر « جانيس لوكينز » أحد دعـاة القومية الشباب الذى نظم الـرحلة الفعلـية ، غير عالم بهذه الصلة . كما كـان « لوكينـز » على اتصال بـ « هوجـو جينترس » الرجل الذى يعتنـق كثيراً من المبادىء الفاشية إلا أنه لم يكـن فاشياً تماماً ، وكان قد جمعت بينـه وبين « روبرت أندرسـون » العلاقات الطيبة فى السفارة الأمريكية .

وبرزت الفكرة أساساً من خلال حديث بين « جينزس » و « لوكينز » بأن يتم جمع التبرعات من الرعـايا اللاتفيين فى المنفى وأحد القساوسة السـويدين من أجل الحصول على زورق سريع والأجهزة والعتاد اللازم . وكان هـذا القسيس يعمل نيابة عن وكالات الاستخبارات الانجليزية فى الخفاء .

وبعد أن هبطـا على أرض الميناء ، شق الـرجلان طريقهما إلى خـارج قريـة الصيد المشرفة على البحر متوجهين إلى بيت والد « زاندى » قلما دخـلاه توجه زاندى إلى الغرفة العليا حيث شرع فى بث المعلومـات باللاسـلكى لتأكيد وصـولهما الآمن فى حين قام « تومسـون » بفك تحميلات البنادق الآليـة والمسدسات والزخائر ليفحص أن كل شىء على مايرام وأنه جاف لم تصبه الماء .

وحدث بعد ذلك أن أصابت بعض التلفيات جهاز الإرسال الخاص بالمستر زاندى ، بعد أن كان قد قطع شوطاً فى العملية ، وسار سيراً حسنا على مسار تنفيذ كل الخطوات المتفق عليها . إذ جاءته الرسائل اللاسلكية تقول : بأن الجهاز يعانى من التشويش وأن رسائلـه لاتصل واضحة ، واقترح عليـه الاتصال بمشغل راديـو من رجال المخـابرات البريطانية اسمه « برمجانيس » لإصلاح تلك العلة .

وواصلت أجهزة المخـابرات البريطـانية اتصـالاتها مع المستر « برجمانيس » على

الـرغم من الشكوك الخطيرة . وبـرغم أن تـوضيحاتـه وشروحه بـدت معقولـة ، إلا أن رسائله على مدار الأشهر الماضية كانت غريبة بل الأكثر من ذلك أنها كانت هيستيرية . ومع ذلك ، حيث أن مـوقف « زاندى » صار مـوقفاً بـائساً وعصيبـاً ، كانت المخـاطرة تستحق العناء والمغامرة الواجبة .

وفى أوائل نوفمبر ١٩٤٦ ، تلقى بيرجما نيس رسالة من السـويد تم أيضاً إرسالها إلى « زاندى » تنصح المستقبلين بأن يتوجها إلى اجتماع فى منـزل إحدى النساء العجائز فى « جالجافا » بالقرب من الميناء الكبير على البحر البلطى الذى يطلق علية اسم « ريجا».

تلقى « بيرجما نيس » تـدريبـاً جيداً ونصـائح هـامـة ، عندمـا وصل إلى مكـان الاجتماع . حيث أجاب بسهولـة على كافة تساؤلات المستر « زاندى » وبـدا وجود راديو يعمل أمراًمهدئاً لمخاوف المستر « بيرجمانيس » . ووافق « زاندى » على أن رسائله يجب أن يتم نقلهـا وبثهـا عن طـريق « بيرجمانيس » وأصـدر أيضـا أوامــره إليـه لجمع الاستخبارات والمعلومات من أجل لندن .

ولدى عودتـه ، قال زاندى للمستر « تومسون » : إن الاجتماع كـان ناجحا وإننى لأشعر بـالرضـا لأن المستر بيرجمانيس لايعمل لصالح أجهزة المخـابرات السـوفيتية المعروفة باسم « لجنة أمن الدولة » (كى – جى – بى) .

وعلى مدار الأسابيع التـالية أصبح نجاحات المستر « زانـدى » تلقى المخاوف لدى رجال المخابرات البريطانية خشية افتضاح أمره وانكشاف عملياته .

وفى ستوكهـولم ، جمع « جانيس لـوكينز » المال الـلازم لشراء وتدبير زورق أكبر لعبور البحر البلطى . واختـار رجلا محنكاً من لاتفيا واسمـه « ايلمارس سكوبى » من أجل قيادة هذه المهمة الأخيرة .

ولقد كان « سكوبى » على مابدا رجلا مثالياً واختياراً ناجحاً فهو ضابط فى الطليعة الرائدة لفيلق إبـان الحرب ، ولقد ترك السيرة الحسنة التـى مؤداها أنه منـاهض مثالى ضد الشيوعية ، وكيف أنـه استطاع أن يقتل فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٤ الكثير من الروس كهدف من أهدافه التى آلى على نفسه أن يحققها .

وعلى مـدار معظم عام ١٩٤٥ ، عـاش هو وزوجتـه وأتباعـه الثلاثـون فى غابـات كورلاند ، مسلحاً بالأسلحة الألمانية ، وقام بعمليات اضطهاد وإزعاج للفلاحين من أجل

الحصول على الطعام الكافى لإعاشتهم . وبحلول أواخر شهر الصيف ، أصبحت فرقة المقابلين التابعة له فى حالة من العوز والفقر ، وصارت تحيط بها المخاطر من كل صوب وناحية بدرجة متزايدة .

وفى ذات ليلة ، فوجئوا بإحدى دوريات الجيش الأحمر ونجا « سكوبى » من الموت بأعجوبة عندما أطلق النار على أحد الضباط الروس الذى كان قد تمكن منه فأرداه قتيلاً . وعندها أمر أتباعه بالرحيل إلى السويد قائلاً إننا لا يمكن أن نجلس هنا فى انتظار نشوب الحرب ، واقترح أن يستقلوا زورقاً للإبحار إلى السويد .

وفى خضم تخطيطهم لعملية الهروب ، فى ٤ اكتوبر ، أسر ال « كى جى بى » زوجة « سكوبى » . وعلى مدار الأيام التالية ، تعرضت المرأة التى جردوها من ملابسها وقيدوها فى أحد الكراسى للتعذيب من أجل استخراج معلومات منها واعترافات بأماكن المجموعة التى تنتمى إليها .

ولكنها استطاعت تحت وطأة الألم والعذاب أن تتآمر على ضباط ال « كى جى بى » وخداعهم إذ قالت لهم: إنها سوف ترشدهم إلى ما يريدون ولكنها تطلب عدم مصاحبتها إلا عن بعد حتى لا ينكشف الأمر وتهرب أفراد المجموعة . ولما وجدت أنها ابتعدت عنهم فى الظلام مسافة كافية ، أطلقت ساقيها للرياح واختفت وسط الأحراش واستطاعت العودة الى مكان زوجها ، ولكنها ظلت سنوات طويلة بعد ذلك تعانى من الآلام .

وتخفى المستر « سكوبى » فى زى رجل المخابرات « كى جى بى » السوفيتيه الذى سبق أن قتله ، وجعل يبحث عن زورق يمكنه هو وزوجته وأتباعة من الرحيل من تلك البقعة ، وفى ٢٢ أكتوبر أصدر أوامره بصفته رجل مخابرات روسى الى أحد الصيادين الذين يعيشون فى قرية « جوركالين » بأن يقدم زورقه من أجل مهمة البحث عن قطاع الطرق وأشخاص مشبوه فيهم .

وتم إلقاء القبض على صياد السمك سيىء الطالع خارج الميناء ، فى حين أن الزورق شق طريقه فى البحر وهو يقل بقية فريق المستر « سكوبى » متوجها الى « جوتلاند » لطلب حق اللجوء السياسى .

وقال « سكوبى » لزوجته : « إن السويديين لا يعرفون بالذى سوف يفعلونه معنا » وذلك مع حلول أعياد الكريسماس عام ١٩٤٥ ، حينما كانوا لا يزالون

محتجزين فى معسكر اللاجئين . وحدث أن زار مع « لوتجاس » مقر السفارة البريطانية ليعرض خدماته إلا أن المسئولين بالسفارة رفضوا خدماته واعتذروا له فى أدب ودماثة خلق .

وأخبر « سكوبى » المسئول البريطانى أن طموحه هو الحصول علي زورق ليعود به ويستأنف الكفاح فى لاتفيا . وصار الاحتياج إلى زورق هاجساً يؤرق الرجل ، وهو الهاجس الذى تفاقم حينما أرسله السويديون للعمل فى غابات الشمال ، فصار على بعد ٢٦ ساعة بالسيارة من زوجتة . وفى صيف ١٩٤٦، انكشفت عنه الغمة وزالت عنه المحنة . إذ كتب « جانيس لوكينز » بأنه يحتاج المساعدة لإعداد زورق من أجل رحلة خاصة .

كان « لوكينز » غير مدرك لمشكلات الراديو التى يعانى منها « زاندى » وبنهاية شهر أكتوبر من عام ١٩٤٦ ، جند « لوكينز » أربعة رجال آخرين من لاتفيا كطاقم له أما الشخص الخامس الذى عينه « جنترس » فقد تقرر أن يقيم فى لاتفيا كمشغل لراديو الاتصالات اللاسلكية الخاصة بأجهزة المخابرات البريطانية السرية .

وفى ١٧ ديسمبر ، فى الوقت الذى كان فيه « سكوبى » ينهى ترتيباته ويضع لها اللمسات النهائية ، وصل وسيط غير معروف هو الذى وصفهم « سكوبى » فيما بعد بأنه « الكولونيل - وصل إلى الرصيف البحرى وأفرغ حمولة حقيبتين بنيتين . كانت المحتويات تتحدث عن نفسها : وهى جهازان من أجهزة الاستقبال والإرسال ، وراديو جديد وجهاز إرسال وبندقيتان أمريكيتان من عيار ٩ مم ، وثلاثة مسدسات ، وذخائر ، وصندوق علاج وأدوية .

أخفى « سكوبى » والطاقم الذى معه بكل عناية الأشياء فى أماكن سابقة الإعداد . أما المصدر لكل هذه الأشياء فهو أحد الرجال من استونيا ، هكذا قال سكوبى للطاقم الذى معه . وعلى الرغم من طلبه لاختبار صلاحية الزورق ، أصر « لوكينز » أنه ليس هناك الوقت من أجل ذلك ، حيث إن رجالنا فى لاتفيا صاروا قلقين للغاية .

وأعطى الكولونيل للمستر « سكوبى » حافظتين آخريين الأولى تحتوى على ١١,٥٠٠ روبيل (وحدة النقد فى الاتحاد السوفيتى) والأخرى تحتوى على أكواد جهاز راديو ومواقيت وجداول البث اللاسلكى . وقال له : لاتدع لأى أحد أبداً مهما كان أن

openkanz.com

يضع يديه على هذه الأشياء .

فدس « سكوبى » المظروف إلى إحدى الحقائب وأضاف ٣,٠٠٠ روبيل أخرى كان قدأعطاها إياه باليد إلى جيبه . ولم يكن سكوبى قد رأى مثل هذا المبلغ من المال قط فى الماضى وطوال حياته . وقال له الكولونيل وهو يسلم له طردين آخرين صغيرين « إليك شىء آخر إضافى ، ثمانية غطاءات زجاجية كغيارات لجهاز الرديو أعطها إلى مشغل الراديو حينما تصل » .

وكانت تلك الأشياء بمثابة قطع غيار لجهاز إرسال المستر « زاندى » المهم أخفى « سكوبى » الحقائب داخل أجهزة الملاحة . وكلفه بالمزيد من التعليمات إذ قال له : مهما يحدث من أمور ، يجب ألا تدع الزورق والأجهزة تقع فى أيدى الروس . وإذا أمسكوا بك فى البحر ، يتعين عليك أن تضرب النار فى خزانات الوقود وتهلك مع الزورق . وإذا وجدت لظروف قهرية وجوب مكوثك فى لاتفيا ، وأمسكوا بك هناك ، فلا يجب أبداً أن تقول إلا أنك تسللت عن طريق ألمانيا . ولايجب أن تكشف تحت أية ضغوط أنك قد جئت بالمساعدة الأمريكية من السويد .

وشرعت سفينة « هاجبارد » فى الإبحار بعد يومين وعلى ظهرها ضابط بحرى سويدى هو الذى أبحر بها عبر أرخبيل ستوكهولم الملىء بالصخور صوب « جوتلاند » وذلك قبل الانتقال إلى زورق آخر كان ينتظر فى الخارج عند البحار العالية . وأبحر « سكوبى » إلا أنه سرعان مارصدته إحدى الدوريات البحرية السويدية . غيرأن الزورق سبق الدورية ، ولكن عند الوصول فى ميناء جوتلاند تعرض الزورق للاحتجاز .

وبعد ساعتين ، وعلى الرغم من اكتشاف أجهزة الراديو والأسلحة ، وردت مكالمة هاتفية إلى « بيرتيل بوند » ، مقر الاستخبارات المضادة فى الجزيرة ، كان من شأنها أن تؤمن إطلاق سراح السفينة . بل أكثر من هذا ، فى ١٩ ديسمبر ، كانت سفينة « هاجبارد » فى الطريق وكان قصدها الوصول إلى خليج « سكالت » فى أعمق أعماق المياه الإقليمية الروسية حيث لاتتوقع الدوريات السوفيتية أن تغامر السفن الأجنبية بالوصول إلى هناك .

كان المستر « زاندى » وحوالى عشرين لاتفياً ينتظرون صامتين بالقرب من

الشـاطئ من أجل خلاصهم ، غير مـدركين أن « لـوكاسيفيتش » وتجريـدة كبرى من المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » مختبأة بالقرب من مكان تواجدهم .

كانت سفينة « هاجبارد » متواجدة فى أعماق المياه السوفيتية ، وتتجه صوب موقع الموعد المحدد حينما فقد « سكوبى » أعصابه فجأة . وعلى الرغم من أنه فيما بعد زعم أن البـوصلة كـانت تتأرجح بشـدة ، إلا أنـه فى حقيقة الأمـور كـان يخشى من أن يضيع الزورق ويتعرض للانكشاف وافتضاح أمره فيما بعد فى ضوء النهار .

فأصدر أوامره بالالتفاف نحو الخلف بزاوية درجتها ١٨٠ وبسرعة بالغة فى البحر ليخرج من الموقع المحاصر . وفى الظهـيرة ، كانت السفينة تقترب للمـرة الثانية مـن « جوتلاند » حيث تم التقاطها من جـانب البوليس المحلى . لم يكن أمام « بيرتيل بوند » أية سلطات تخوله التأثير على قوات ذلك البوليس .

ولدى مثولـه التحقيقات قال سكوبى : إنـه يجمع التبرعات والأموال من أجل شراء هذه المعدات والهدف إطلاق سراح وإنقاذ الأهل والأقـارب من براثن الأعداء فتم تحويله إلى ستوكهولم حيث عهد به إلى وكالة الاستخبارات المدنية .

وهناك مارست الزبانية أشد أنواع التعذيب والتنكيل بالمستر سكوبى فانهار تحت وطأة الشدة واعترف ، وأخـذ يملى اعترافاته أمـام الضابط الـذى أصر على أنه لن يطلق سراحه إلا بعد الاعتراف تفصيلياً بكل شىء وبأسرار العملية التى ضبط متلبسا بالقيام بها .

وفعلاً أخبره بأنـه يعمل لصالح الاستخبـارات الأمريكية وجهـازها الجديـد الذى أصبح اسمه « وكالة المخابرات المركزية الأمريكية » وذلك فى أعقاب وضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حيث كان اسمها أصلاً : مكتب الخدمات الاستيراتيجية .

وقـال : إن الضابط الأمـريكى حدد مطـالبـه بالاتصـال مع جماعات الفـلاحين وإعطائهم أجهـزة الراديو والـلاسلكى التى من شأنها أن تزودنا بحلقـات الاتصالات الضرورية معنا وبخاصة للحصول على المعلـومات عن اختبارات الصواريخ الروسية ، حيث أنهم كانـوا يرغبون فى معـرفة قواعـد الروس العسكريـة ومواقعها وإمكـانياتها ومسـارات اختبـارات الإطلاق والإقـلاع والتفصـيلات الفنيـة الـلازمة حـول هـذه الصواريخ .

كما اعترف سكوبى أن المخـابرات الأمـريكية أرادت معلـومات عن الجيش الأحمر الروسى وكل مايحدث على الصعيد الاقتصادى والسياسى فى المنطقة . واعترف بأن هذا الضـابط هو الـذى أمده بـالعتـاد والأجهزة وسـوى الترتيبـات الكاملـة مع البحريـة السويديـة وأجهزة المخابرات المضـادة فى جوتلاند . ولم يكن أمـام الضابط المحقق إلا الأخذ بأقـواله واعتبارهـا صحيحة طالما أن الأجهـزة التى أمامه لم تكن سـوى أجهزة أمريكية الصنع .

وفى اليوم التالى من يناير عام ١٩٤٧ ، عرض على المستر سكوبى مجموعة مختارة من الصور الفوتـوغرافية . وكان من بينها صور للمستر « روبـرت أندرسون » رئيس محطة المخابـرات البريطانية فى ستوكهـولم ، والكولونيل « ليونـارد جونسون» الملحق العسكرى الأمريكى ، ومسئولون آخـرون بالسفارة كان الضابط المحقق يتشكك فيهم وفى تورطهم فى أنشطة تجسسية وتخريبية .

ولقد كشفت التحقيقات أن هناك شخصا اسمه « مـاكلاشلان سيلفروود كوبى » ملحقاً رسمياً بصفته سكرتير ثالث فى السفارة البريطانية فى ستوكهولم منذ صيف عام ١٩٤٥ ، وكان قـد غادر السويد على غير تـوقع وطار إلى انجلترا . إن هذا الدبلـوماسى العجـوز البالغ من العمـر ٣١ عـاما كـان معروفـا لكبير ضبـاط استخبارات أجهـزة المخابرات البريطانيـة السرية فى السفارة ، وهو الذى طور أثناء الحرب صـلاته الوثيقة مع المخابرات الفنلندية والنورويجية .

وعلى الـرغم من أن إنكـار « سكـوبى » أنه يعـرف « سيلفـروود كـوبى » ، إلا أن الضابط المحقق توصل إلى نتيجـة مؤداها أنه من الـواضح أن مهمة سكوبى هى مجرد البدء فى شن خطة بريطانية لتجنيد العملاء فى روسيا وتزويدهم بالضروريات ثم نقلهم بالمظلات ، وإنهم تركـوا عمداً علامات « جيش الولايات المتحـدة » على أجهزة الراديو ، حتى يمكن لفت الانتباه وإبعاده إلى الأمريكيين فى حالة قبض الأعداء عليهم والاستيلاء على مامعهم مـن أجهزة ومعدات . أنكـر سكوبى أيـة صلات تربـط بينهم وبين أجهزة المخابرات البريطانية قائلا : إن كل هذه المعلومات غير صحيحة .

وفى الأسابيع التـالية لسفر المستر « سيلفر وودكوبى » بالطائرة إلى لندن ، أصبح « لوكـا سيفتش » قلقاً بشـأن عملية الخداع التى قـام بها . ولم تكن أجهزة المخـابرات السوفيتية الـ « كى ـ جى ـ بى » مدركة أو عالمة بأسباب عدم وصول سكوبى كما أنهم

تلقوا رسالة أخرى من السويد بأن الزورق تعرض لعاصفة هوجاء هى التى تسببت فى تأخيره ، وإنه سوف يصل فى تمام يوم ٥ يناير - بعد يومين من فشل وإخفاق « سكوبى » فى تحديد هوية الكولونيل المطلوب لضابط التحقيق .

أما المستر « ماكيبين » فقد كان يتعشم فى ترتيب سفينة بديلة إلا أنه أخفق . أما « زاندى » وجماعته الكبرى ، فلا تزال تحت رقابة المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » ، ومع ذلك فقد استطاعوا العودة إلى بيوتهم .

لم يكن « زاندى » و « تومسون » يستطيعان صبراً وانتابهم الجزع وأخذ منهم الهلع كل مأخذ ، وكان « تومسون » قد وجد زورقاً صغيراً بحاجة إلى تصليحات طفيفة وأصبح على استعداد للإبحار . وفى ليلة الإبحار فشلت المحركات فى الشروع والتحرك بالدوران . واكتشف فيما بعد أن الميكانيكى التابع لأجهزة الـ « كى - جى - بى » كان قد أزال جزءاً صغيراً ولكنه حيوى من المحرك .

بلغ اليأس بالمستر « تومسون » مبلغه واشتد به القلق ، وسرعان ماأخذ يبحث عن زورق آخر فى حين أن « زاندى » استمر بكل قوة ونشاط فى جمع الاستخبارات لكى يتم بثها عن طريق المستر « برجمانيس » . إلا أنه بحلول شهر مارس عام ١٩٤٧ ، صار رؤساء « لوكاسيفيتش » قلقين تستبد بهم الظنون والشك بشأن جودة المعلومات الاستخبارية التى كان يرسل بها المستر « زاندى » . وبمرور الوقت صار زورق المستر « تومسون » جاهزاً للإبحار ، ولكن فجأة ، صدرت أوامر من أحد رجال الاستخبارات المعادية . « اقبضوا عليهم فوراً .. لقد أصبحوا فى منتهى الخطورة » .

وأرسل « كارليس أرينز » مشغل الراديو فى السويد الذى استطاع التقاط آخر رسائل « برجمانيس » فى السويد ، بتحذيراته إلى المقر الرئيس للاستخبارات قائلاً : لقد حدثت كارثة عظمى .. ألقى الأعداء القبض على المستر زاندى ، والمستر تومسون . أما أنا فقد نجوت بأعجوبة . وأخشى أن يعترف المستر زاندى تحت وطأة التعذيب . كما توقفت جمييع الأنشطة . سأعاود الاتصال بكم حينما يصير الوقت أكثر أمنا وسلامة .

وعلى صعيد العمليات الاستخبارية فى المقر الرئيسى لمخابرات الدولة البريطانية السرية ، أدت هذه المعلومات الخطيرة إلى إرباك المستر « كار » والمستر « ماكيبين » إذ كانت مفاجأة لهم وتطوراً غير متوقع بالمرة . ففى الماضى القريب ، لم تكن هناك أية إشارة أو مجرد تلميح بوجود أدنى خطر ، والآن انقلب كل شىء رأساً على عقب . إذ

أطبق الصمت الرهيب ولم يعد أحد يعرف بما جرى لهم .

وسرعان ماتخذت أجهزة وأقسام المخابرات البريطانية السرية كافة الإجراءات الكفيلة بامتصاص الصدمة ، حيث شرعوا فى تغيير كافة الخطط المستقبلية القائمة على عمليات الفريق المضبوط ، كما حاولوا حماية سائر العملاء عن طريق إبلاغهم بطرق وأساليب تكفل لهم السرية وعدم الوقوع فى براثن استخبارات الـ « كى - جى - بى » . إذ أن المخابرات البريطانية كانت قد تعلمت فى الماضى أن الـ « كى — جى - بى » إذ أن المخابرات البريطانية كانت قد تعلمت فى الماضى أن الـ « كى - جى — بى » يستغل المعلومات المستمرة من سقوط العملاء . والجواسيس البريطانيين فى شن عمليات جديدة إجهاضية .

وشرعت المخابرات البريطانية فى البحث عن عملاء جدد وكان الذى رشحهم لها هو المستر « روبرت سيبريس » الذى هرب من لاتفيا فى مايو عام ١٩٤٥ .

واكتشف المستر « سيبريس » أن شخصاً عظيماً يصلح للعمل الجاسوسى ألا وهو المستر « فيليكس رومينكس » .

ولد « رومينكس » فى « ريجا » عام ١٩١٤ ، وعمل فى الفيلق العسكرى المعروف باسم « إس - إس » التابع لدولة لاتفيا وذلك قبل أن يهجره فى يناير عام ١٩٤٥ . وسرعان ما تم اعتقاله فيما بعد ، وتقابل مع أحد معارفه واسمه « روبرت أوسيس » ، أحد ضباط جيش لاتفيا الذى كان مصدراً من مصادر الاستخبارات فى منطقة « ريجا » قبل عام ١٩٣٩ .

وفى اثناء الاحتلال الألمانى ، تمت ترقية « أوسينس » إلى رتبة الكولونيل « عقيد » وعهد إليه أساساً بتولى مهمة حراسة حارة اليهود فى « ريجا » غير أنه فيما بعد تولى قيادة فريق إعدام متجول فى كل من « لاتفيا » و « بولندا » . وقد تم مناقشة أنشطة زمن الحرب هذه بإيجاز فقط حينما تقابل « أوسيس » و « رومينكس » فى يناير عام ١٩٤٥ .

واقترح « أوسيس » وجوب إبحار « رومينكس » إلى السويد وإبلاغ أجهزة الاستخبارات البريطانية أن « أوسيس » ، وهو المصدر الموثوق لديهم فى ريجا منذ عهد ماقبل الحرب ، أصبح للمرة الثانية على استعداد لأن يقدم خدماته . ووصل

« رومينكس » بمساعدة الألمان إلى السويد ، وفى أعقاب مكالمته وحديثه مع أحد مسئولى السفارة البريطانية ، قام بالاتصال بالمستر « تيفيرز » التابع للمجلس المركزى اللاتيفى ، وكان قد عمل فترة وجيزة لدى الإنجليز .

لم يثمر اجتماعهما عن نتائج تذكر وتم إدخال المستر « رومينكس » فى أحد معسكرات اللاجئين ، فى حين أن « أوسيس » بمساعدة جهاز المخابرات البريطانية ، كان قد وصل أخيراً إلى بريطانيا سالماً .

ولما عثر « سيبرس » على « رومينكس » فى أوائل عام ١٩٤٦ ، علم أنه يعتزم العودة إلى بلاده ، سأله أن يتريث . وتم الاتفاق على أن يسافر « أرسيس » إلى السويد انطلاقاً من لندن ، ونيابة عن « ماكيبين » لمقابلة المستر « رومينكس » وإقناعه بالعودة إلى « لاتفيا » باعتباره عميلاً سرياً من عملاء المخابرات السرية البريطانية .

ووافق « رومينكس » على هذه الخطة ، ولما حققت معه المخابرات السوفيتية الـ « كى ــ جى ــ بى » ، اعترف على الفور بأن المخابرات البريطانية كانت قد جندته ، وأعطته اسماً رمزياً وحركياً وهو « ميلبارديس » وأن قناة اتصالاته مع لندن هو زيارته للبحارة من التجار الذين يعملون بالتجارة فى البحر .

ولما اعترف بتفاصيل كل شىء ، صار بوسعه إقامة علاقة طيبة مع الضباط المحليين الذين يعملون فى استخبارات لجنة أمن الدولة السوفيتية الـ « كى ـ جى ـ بى » وأن يفى بالغرض الحقيقى لمهمته ، ألا وهو استكشاف المصير الذى آل إليه المستر « زاندى » و « تومسون » و « أرنيتش » . واعتزم أن يرسل بالمعلومات التى استقاها عن طريق البريد ، مستخدماً الحبر السرى ، وموجها رسائله إلى عناوين فى ألمانيا الغربية وبلجيكا .

وحدث أن جاءت عودة « رومينكس » حسبما كان مخططاً لها من قبل ، كما أن اقتناع ضباط الـ « كى ــ جى ــ بى » برواياته المختلقة ، وسمحوا له باستئناف حياته الطبيعية فى مدينة « ريجا » . أما أجهزة الاستخبارات البريطانية ، والمستر « ماكيبين » فقد كان يتعين عليهم الانتظار وترقب التطورات المستقبلية .

* * * *

obeikan.com